
شطرنج بلا رماد
ميس الزير
رواية

رواية

شطرنج بلا رماد..

إهداء إلى:

إلى نفسي..

التي خاضت أشرس المعارك وحدها، وارتدت درعاً من جليد لتنجو.

إلى كل لحظة انكسار ظننتُ فيها أن الهاوية نهايتي، فإذا بها بداية القوة.

هذا الحبر ليس إلا مرآة لرمادنا الذي أضاء العتمة.. لم ننكسر، ولن ننحني.

المقدمة:

إلى القارئ الذي يفتح هذه الأوراق: قد تظن وأنت تقلب هذه الصفحات أنك تقرأ لبطلة واحدة، لكن الحقيقة أنك تشاهد معركة صامتة تدور داخل عقل ممزق.

سولارا هي الفتاة الهشة، الدافئة، التي ينهش الخوف قلبها على والدها المريض ومستقبلها المهدد بالانهيار تحت وطأة الفقر والابتزاز الأكاديمي.

أما آسيا فهي ليست سوى الخندق الذي حفرته سولارا بيديها.. درع من صقيع وجليد تلجأ إليه حين تعجز عن مواجهة قسوة العالم بقلبها المرتجف.

هما ليستا شخصيتين منفصلتين، بل هما وجهان لامرأة واحدة تقرر في قاع الألم أن تخلع خوفها.

هذه الرواية ليست مجرد حكاية عن ابتزاز في مكتب رئيس قسم، أو صراع بين طالبة مكلومة ومنظومة فاسدة باعت ضميرها. إ

بل نها رحلة سيكولوجية قاسية إلى قاع الخوف، حيث يضطر الإنسان إلى خلع جلده الهش ليرتدي درعاً من صقيع.

بين الخزانة رقم (13)، وأروقة الأرشيف المظلمة، ورائحة الورق المتآكل، وأرقام التقارير الطبية التي تعد نبضات قلب مريض، أدعوك أيها القارئ لتخوض معنا هذه المعركة.

لتعرف كيف يتحول الحبر إلى سلاح، وكيف يمكن للرماد – رغم قاع الألم – أن يضيء عتمة الطرقات المنسية، لتكتشف في نهاية المطاف أن مواجهة الطغيان لا

تتطلب جيوشاً، بل تتطلب قلباً شجاعاً يجرؤ على النظر في عينيّ الحقيقة دون أن ينكسر.

أهلاً بك على الرقعة.. حيث لا مكان للمتراجعين.

الفصل الأول:

أحياناً، يكون أثقل ما يحمله المرء، نبضات قلبه المكسورة...

كانت الرطوبة في الممر المؤدي إلى مكتب الدكتور عاصم خانقة، أشبه بهواء حُبس في قنينة زجاجية منذ عقود.

تنفستْ سولارا ببطء، محاوِلةً تهدئة الارتجاف الخفي في أطراف أصابعها الذي كاد يفضح هلعها الداخلي.

في حقيبتها الجلدية الصغيرة، يقبع التقرير الطبي الأخير لوالدها؛ الأرقام الصغيرة المطبوعة باللون الأحمر، التي تشرح حال والدها صحي السيء، لم تكن مجرد مؤشرات حيوية أو تحليلات مخبرية باردة، بل كانت عداداً زمنياً ينهش ما تبقى من استقرارهما المالي والنفسي.

كل نبضة قلب لوالدها باتت تُشترى بالدواء، والدواء يُشترى بالمنحة والمساعدات الأكاديمية، لكن المنحة والمساعدات المالية بأكملها تقف الآن خلف ذلك الباب الخشبي الثقيل الذي تفصله عنها خطوات معدودة.

تأملت مقبض الباب النحاسي. كانت السيناريوهات تتضارب في رأسها كأمواج هائجة:

ما الذي يريده رئيس القسم منها في هذا الوقت المتأخر؟

هل كُشفت محاولاتها لتأجيل دفع الرسوم؟

أم أن هناك خطأ في أوراق المنحة؟

طرقت الباب ثلاث طرقات خفيفة، حذرة، تكاد لا تُسمع.

جاءها صوته الرخيم، المسترخي بنبرةٍ تحمل تعادلاً فجاً بين السلطة المطلقة واللامبالاة الساخرة:

أدخل..

دفت الباب ولجت. كان الدكتور عاصم يجلس خلف مكتبه الضخم المصنوع من خشب البني الداكن، محاطاً برفوف من الكتب المجلدة

لم يرفع عينيه عن الأوراق أمامه فوراً.

تركها واقفة لثوانٍ طالت كأنها ساعات، قاصداً إشعارها بضآلة حجمها في معادلته الأكاديمية، وكسر أي كبرياء قد تتسلح به قبل البدء في الحديث.

نطق اسمها أخيراً دون ألقاب، ومطّ الشفتين بابتسامة باهتة ومصطنعة، من تلك الابتسامات التي لا تصل أبداً إلى عينيه الحادتين كشفرتين:

سولارا.. ،كنتُ بانتظارك..

اجلسي..

قالت وصوتها متزن رغماً عن العاصفة التي تجتاح صدرها، متمسكة بحقيبتها محاولة أخطاء توترها:

شكراً دكتور، أفضّل الوقوف..

أريد فقط معرفة سبب تجميد توصية المنحة الخاصة ببحث التخرج.

الشؤون الأكاديمية أبلغتني صباح اليوم أن ملفي معلق بالكامل بناءً على تقرير شخصي صادر من مكتبك، ثم قُمت باستدعائي .

شبك عاصم أصابعه فوق المكتب، ومال بجسده إلى الأمام قليلاً، مسلطاً عليها نظرة فاحصة، ثم قال:

المنحة، نعم .

العجلة في هذه الأمور لا تفيد يا سولارا، التدقيق واجب، خصوصاً في ظل الظروف الغامضة والمقلقة التي تمر بها الجامعة هذه الأيام، إذ أن هذه الامتيازات لا يحصل عليها الكثير هذا العام.

لسنا في وارد توزيع أموال ومقاعد مجانية دون التثبت من الجدارة الأخلاقية والاستحقاقية قبل الأكاديمية.

انقبضت أحشاؤها، وشعرت بوخزة حادة في معدتها.

ماذا تقصد بالجدارة الأخلاقية؟

بحثي حاز على التقييم الأول في المرحلة التمهيدية، وأنت تعلم...

قال الاسم بنبرة متباطئة مقصودة

– زميلتكِ..

رغد ...

– أجل ما بها ؟

– اختفاؤها المفاجئ منذ ثلاثة أيام يثير الكثير من التساؤلات والهمس في أروقة الكلية.

والتحقيقات الأولية التي تجريها إدارة الأمن بالجامعة تشير إلى أن آخر شخص شوهد يتحدث إليها في ممر المختبرات القديمة المهجورة في قبو الجامعة.. كنتِ أنتِ.

صمت قليلاً قبل أن يكمل ..

والأدهى من ذلك، أن مسودة بحثها المفقود تشابهت بشكلٍ مريب، بل متطابق بشكل كبير جداً في بعض الفصول، مع الأفكار التي طرحتِها في مشروعكِ، الذي يتكلم عن روايتك المحدثة.

شعرت سولارا وكأن الأرض تميل تحت قدميها:

أرجوا المعذرة دكتور، لكن ما هذا الهراء!؟.

هذا اتهام باطل!

رغد صديقتي المقربة، ونحن نعمل في خطين متوازيين تماماً.

أنت تعلم يا دكتور أنني أمضيت الليالي بطولها في المكتبة لجمع مراجعي، لم أسرق جهداً من أحد، ووالدي...

قاطعها الدكتور ببرود، وقال بنبرة خالية من أي وازع أو تعاطف إنساني:

والدكِ مريض، في حالة حرجة، وأيامه واضحة الحساب..

أعلم كل شيء.

ولهذا السبب تحديداً، كنتُ أظن أنكِ ستكونين أكثر حكمة وذكاءً في التعامل مع الموقف.

اتهامٌ بالسرقة الأدبية أو الضلوع في اختفاء طالبة، حتى لو ثبتت براءتكِ منه بعد أسابيع من التحقيق ، الأدلة في الحاضر كفيلة بإلغاء منحتكِ فوراً كإجراء احترازي، وربما يعمل بعض الحاقدين على تشويه سمعتكِ الأكاديمية تماماً، وربما.. وهو الأهم بالنسبة لكِ، حرمان والدكِ من التغطية العلاجية الاستثنائية التي توفرها الجامعة للمتفوقين وعائلاتهم.

الخيار بالكامل في يدكِ الصغيرتين، يا سولارا، لا نريد أن تتشوه سمعة الجامعة بسبب اختفاء فتاة، وهناك طلاب اخرين يحتاجون لهذه الامتيازات لذلك أريدك إن جاءت عائلة رغد للجامعة أو حتى بعض عناصر الشرطة لتحقيق في ظاهرة الاختفاء هذه ، أن تقولي الأمر بنفسك، أنت آكثر من يعرف عنها معلومات يا سولارا...

ساد صمت ثقيل، لم يكن يقطعه سوى طنين المصباح المكتبي وتكات ساعة الحائط التي بدت كأنها تسخر من أزمتها.

تلاقت عيناها الخائفتين بعينيه، فرأت فيهما شهوة السيطرة الدنيئة. تابع عاصم ونبرته تزداد لزوجة:

"إما أن نتفاهم حول صياغة جديدة للتقرير الأكاديمي ومشروعكِ، وتوقعي على إقرار يفيد بأن رغد هي من اقتبست من أبحاثكِ لتبرئة ساحتكِ تماماً، والتعاون معي في سياقٍ آخر سأحدده لكِ لاحقاً.. أو أترك الملف يأخذ مجراه القانوني والإداري،

وعندها لن تلومي إلا نفسكِ حين تجدين والدكِ بلا دواء، وتجدين نفسكِ مطرودة خلف أسوار هذه الجامعة...

☆ سولارا ☆

كان الابتزاز عارياً، قبيحاً، وخالياً من أي تجميل أو مواربة.

شعرت برغبة عارمة في الصراخ في وجهه، في تمزيق الأوراق الملقاة أمامه، في تحطيم هذا المكتب الفخم فوق رأسه المثقل بالمؤامرات.

لكن صورة والدي وهو يبتسم لي بوجهه الشاحب المستند إلى وسادته المهترئة في البيت، منتظراً عودتي ببشارة تجديد المنحة، قيدت يدي وشلت لساني.

أنفاسي تلاحقت بشكل جنوني، وشعرت بضغط عصبي هائل يتركز خلف جبهتي، وكأن خلايا دماغي توشك على الانفجار من فرط القهر والكمد العاجز.

☆ الراوية ☆

بدون أن تنطق بكلمة واحدة، لأن أي كلمة كانت ستخرج ممزوجة بالبكاء الذي ترفض أن يراه هذا الطاغية، استدارت وخرجت، دافعة الباب بكل ما أوتيت من قوة خانقة، تاركة خلفها ضحكة مكتومة وصوت خطواتها اللاهثة وهي تركض في الممر.

لم تكن تدري كيف قادتها قدماها عبر الممرات المتداخلة للجامعة. كانت تتحرك بدافع الهرب، هرباً من وجه عاصم، من تهديده القذر، ومن حقيقة عجزها المطلق أمام منظومة تملك كل الأوراق بينما لا تملك هي سوى شرفها الأكاديمي وصحة والدها المهددة.

وجدت نفسها تنزل السلالم الإسمنتية الضيقة والمظلمة المؤدية إلى القبو في مبنى الجامعة القديم، حيث يقبع الأرشيف المتروك للجامعة، وبعض الأوراق القديمة التي كانت تبحث فيها هي وصديقتها الصحفية رغد .

المكان هناك مهجور، موحش، ولم يدخله إنسي منذ سنوات طويلة بعد أن تم رقمنة كافة الوثائق والملفات الحديثة ونقلها إلى السيرفرات الإلكترونية.

الرائحة في الأسفل كانت تزكم الأنوف؛ مزيجٌ خانق من الغبار المتراكم منذ عقود، والورق المتآكل الذي أفسدته الرطوبة، ورائحة العفن الخفيف التي تميز الأماكن التي غابت عنها الشمس للأبد.

دفت الباب الحديدي الضخم للأرشيف، فأصدر صريراً حاداً، طويلاً، ومزعجاً مزق سكون المكان الموحش كأنه صرخة احتجاج من جوف الأرض.

تحركت بخطى متعثرة بين الممرات الضيقة، حيث كانت الرفوف الخشبية والمعدنية الطويلة ترتفع حتى السقف، مثقلة بملفات منسية، وسجلات طلاب تخرجوا أو ماتوا، وصحف صفراء ممزقة.

كانت تمشي في متاهة من النسيان، حيث الأرقام على الرفوف تتسلسل بعشوائية مربكة؛ (4)، (7)، (20)، (2).. كأن المكان نفسه يرفض الترتيب.

انحرفت يميناً، ثم يساراً، متجاهلة الرفوف التي غطتها خيوط العنكبوت. مرت دقائق شعرت فيها بضغط الصمت، كان قلبها يدق بانتظامٍ يوازي وقع خطواتها على الأرضية الإسمنتية الباردة. توقفت أمام صفٍ من الخزائن المتراصة التي بدت كأنها

توابيت حديدية صغيرة، أخذت تتفحص الأرقام بتركيزٍ منهك؛ لم يكن الأمر سهلاً، فبعض الأرقام مُسحت بفعل الصدأ، وبعضها غطته طبقة سميكة من الأتربة.

كانت تبحث في زاوية، عن قبر مؤقت تختبئ فيه من العالم بأكمله ومن وجه واقعها الذي يطاردها ...

هناك، في الزاوية الأكثر عتمة حيث لا يصل حتى ضوء الممرات الخافت، كانت تقبع خزانة حديدية رمادية اللون، مائلة قليلاً إلى الأمام كأنها توشك على السقوط، وقد حُفر على جانبها العلوي الرقم (13) بخطٍ أسود سميك باهت ومقشر.

مدت أصابعها المرتجفة، التي طبعت أثراً واضحاً على طبقة الغبار التي تغطي المعدن، وضغطت على المقبض الصدئ.

تحرك المقبض بصعوبة، مصدراً صوتاً معدنياً جافاً أشبه بصرخةٍ مكتومة، وما إن انفرج الباب قليلاً، حتى اندفعت موجة كثيفة من الغبار العتيق ورائحة الزمن المحبوس، مما جعلها تسعل بشدة وتغمض عينيها، محاولةً استيعاب أن ما تبحث عنه بات الآن في متناول يدها.

حين فتحتهما، رأت الرف الأوسط؛ لم يكن يحتوي على ملفات إدارية كبقية الرفوف، بل كان هناك صندوق خشبي صغير مائل للحمرة، مصنوع من خشب الأبنوس، غير متناسق مع بقية الأثاث المعدني البارد للمكان.

فتحت الصندوق بيدين ترتعشان. بداخلة كانت ترقد مخطوطة سميكة للغاية، مجلدة بخيط خشن متين، أطراف أوراقها مأكولة بفعل العته والزمن، وعنوانها مكتوب بحبر أسود ثقيل كُتب بخط يدوي مضطرب، عنيف، لكنه يحمل أناقة غريبة وقاتمة:

"ترانيم الظل الراحل"....

وتحت العنوان الرئيسي، كُتب بخط أصغر ومائل:

إلى الذين انطفأوا قبل أوانهم.. إلى الذين سحقتهم البيادق...

تجمدت سولارا في مكانها وعادة بذاكرتها إلى أسبوع مضى...

حيث تم رفض مساعدة رغد في إكمال دراستها وإعالة أسرتها، فقررت أن تبحث عن أي شئ يمكن أن يسقط نظام الظلم في هذه الجامعة، فعمدت البحث عن مخطوطة بإسم ترانيم الظل الراحل، في هذا المكان المظلم، وتذكرت وصيتها حيث قالت لها أن تكمل البحث عنها في هذا القبو إن حدث لها شئ أو فشلت ، لعلها تستعيد حقها....

لكنها اختفت قبل أن تجد أي معلومة تساعدها، لذلك عمدت سولارا إلى البحث عن أي شئ يستطيع أن يقف بصفها أن جاءت شرطة لتسألها عن اختفاء زميلتها...

جلست سولارا على الأرض الإسمنتية الباردة، وأسندت ظهرها المتعب إلى الخزانة الحديدية، وفتحت الصفحة الأولى غير آبهة باتساخ ثيابها.

بدأت تقرأ بنهم وجنون، باحثة عن أي شيء، عن أي عالم آخر يفصلها عن واقعها المرير ويوقف النزيف النفسي والقلق الذي في صدرها.

كانت المخطوطة تحتوي على رواية تتحدث عن فتاة تُدعى آسيا، فتاة وُصفت في السطور الأولى بأنها كتلة من الجليد الأسود المتحرك فتاة ماتت بداخلها كل القدرة على البكاء أو الخوف، لا تهتز للتهديد، ولا تضعف أمام الابتزاز، تدير الصراعات والمعارك من حولها ببرود رخامي قاتل، وتحول كل مشاعرها الإنسانية وعواطفها اللامادية إلى حسابات دقيقة، جافة، وصارمة كقطع الشطرنج على رقعة مصيرية.

وبدأت تقرأ....

الخوف هو الثغرة الوحيدة التي يتسلل منها الطغاة إلى حصونكم، فإذا أغلقتِ باب الشعور بالكامل، وصهرتِ قلبكِ ليصبح جليداً، استحال عليهم العثور على مفتاح لكسركِ أو ثغرة لابتزازكِ.

في لعبة القوة، من يشعر أولاً.. يخسر أولاً.

كانت هذه العبارة المكتوبة في الصفحة العاشرة ترن في ذهن سولارا كجرس نحاسي ضخم في وادٍ فارغ.

شعرت بصدى الكلمات يتغلغل في خلايا جسدها. ومع كل سطر إضافي تقرأه، كان الضغط العصبي خلف جبهتها يزداد بشكل لا يطاق...

ثم نطقت جملة مكتوبة في منتصف صفحة كاملة:

☆"أنا شظايا نجمة، ترفض أن يبتلعها الظلام."☆

في تلك اللحظات وبعد أن نطقت بهذه الكلمات

شعرت بجسدها يبرد تدريجياً، وأطراف أصابعها تنمل وتنقطع عنها الدماء.

الخوف اللاهب والقهر الحارق اللذان كانا يعتصران أحشاءها ويخنقان أنفاسها بدآ يتلاشيان ببطء غريب، ليحل محلهما فراغ شاسع، رمادي، ومستقر بشكل مرعب.

لم يكن هذا مجرد تأثر بكلمات كتاب؛ بل كانت تلك آلية الدفاع القصوى التي فجرها جهازها العصبي الذاتي الموشك على الاحتراق التام؛ لقد انسلخت سولارا الضعيفة إلى الداخل، وتلبّست وعي وشخصية آسيا الباردة لتنجو من الموت كمداً.

أغمضت سولارا عينيها من فرط الإجهاد والتعب النفسي، وراحت في غيبوبة نوم مفاجئة، عميقة، وخالية من الأحلام، بينما كانت يداها لا تزالان تقبضان على المخطوطة بقوة تشنجية.

حين انفتحت جفناها مجدداً بعد ساعات، لم تكن سولارا الخائفة المتوترة الضعيفة المستسلمة هي مَن استيقظت.

نظرت حولها في العتمة الدامسة التي فرضها هبوط الليل على قبو الأرشيف.

لم تكن هناك أي رجفة في جسدها، ولا دمعة عالقة في محاجر عينيها. وقفت بسلاسة ومرونة فائقة، ونفضت الغبار والأتربة عن تنورتها بحركات بطيئة، رتيبة، وموزونة بدقة متناهية كأنها آلة مبرمجة.

عيناها اللتان كانتا تفيضان بالقلق والذعر قبل ساعات، أصبحتا الآن ساكنتين تماماً...

الخوف على المنحة؟ التهديد بالطرد؟ خسارة علاج والدها؟ كل هذه الكوابيس التي كانت تدفع سولارا نحو الانتحار قبل قليل، بدت الآن مجرد معادلات رياضية تافهة وبسيطة، يمكن تفكيكها وحلها ببرود وهدوء ودون أي انفعال.

التقطت صور للمخطوطة لطباعتها، عوضا عن أخذ مخطوطة الأصلية ، لكي لا يشك أحد أنها وصلت إلى هنا فيتخلص منها كما فعلوا برغد، ووضعتهما في مكان آمن.

وضعت المخطوطة داخل حقيبتها بعناية فائقة.

مشت بخطى واثقة وثابتة، تضرب الأرض بجرأة نحو المخرج الحديدي.

لم تعد تلك الطالبة المذعورة المكسورة التي دخلت التسوية وهي تبكي بحرقة؛ وكأن تلك فتاة التي تدعى اسيا من رحم الرماد والانهيار الذي كان بداخلها، وهي الآن مستعدة لترتيب النقلة الأولى على رقعة الشطرنج المعتمة هذه، وبدء تصفية الحسابات.

لم تكن طريق العودة إلى البيت مجرد مسافة تقطعها الحافلة بين أزقة المدينة المنهكة، بل كانت لآسيا مساحة زمنية لتفكيك جزيئات الانفعال البشري وإعادة تركيبها.

كانت تدرك بوعيها البارد الجديد أن جسد سولارا يحمل ذاكرة عضلية وعاطفية لا يمكن شطبها دفعة واحدة، بل يجب إدارتها كأداة.

قبل أن تضع المفتاح في قفل الباب الحديدي للشقة، وقفت في ليل الممر البارد، أغمضت عينيها، تلاشت ثقة التي اخذتها من آسيا وعاد قناع سولارا الحقيقي .

كان عليها محاكاة انحناءة الكتفين الطفيفة التي تسبب بها الخوف، ورسم تلك الابتسامة الدافئة التي تولد عادةً من رحم الشفقة والبر بالوالد.

فتحت الباب. انبعثت رائحة مألوفة، مزيج خانق من حساء العدس المطهو على عجالة ورائحة الأبخرة الكيميائية المنبعثة من زجاجات الدواء المصطفة فوق الطاولة الخشبية المقشرة.

كان والدها، أبو أحمد، مستلقياً على أريكته المتهالكة في غرفة المعيشة، يتدثر بعباءة صوفية رمادية غطت نحول جسده الذي نهشه المرض. كان وجهه شاحباً كجدار قديم، لكن عينيه الغائرتين التمعتا ببريق قلق ما إن وقعتا عليها.

خرج صوته متهدجاً، مصحوباً بسعلة جافة حاول كتمها في كفه المرتعشة.

تأخرتِ كثيراً يا ابنتي...

شغلني البال عليكِ، والجامعة في هذه الأيام لم تعد مكاناً آمناً بعد ما سمعناه عن اختفاء تلك الطالبة..

اقتربت منه بخطوات رتيبة، انحنت وطبعت قبلة على جبينه المتعرج. كان الجبين ساخناً بفعل الحمى الخفيفة، لكن شفتيها كانتا ببرودة الصقيع.

حاولت تليين نبرتها لتطابق صوتها الهادئ المعتاد وقالت:

المكتبة كانت غاصة بالطلبة يا أبي، وتدقيق مراجع الفصل الأخير من البحث استغرق من وقتي أكثر مما توقعت.

كيف حالك أنت، وحال جرعة المساء؟

هل تناولتها في موعدها؟

تناولتها، وجارتنا أم أمجد أحضرت لي الحساء جزاها الله خيراً.

نظر إلى عينيها ملياً، وكأن حساً أبوياً غامضاً يخبره بأن الفتاة الواقفة أمامه ليست بكامل تفاصيلها التي يعرفها ..

لكن وجهكِ يحمل جموداً غريباً يا سولارا، وعيناكِ.. تبدوان كأنها تنظران إلى شيء لا أراه.

هل ضايقكِ أحد في الكلية؟

هل هناك مشكلة في المنحة؟

ثبتت نظرتها دون أن يرف لها جفن، ولم تسمح لترددها الكامن في الأعماق أن يطفو على السطح أمام والدها أبداً...

ابتسمت بزاوية شفتيها محاولة الثبات وثقة وقالت:

بل على العكس تماماً يا أبي.

الأمور تسير وفق ما خططت له بدقة.

المسؤولون أبدوا اهتماماً استثنائياً بمسودة بحثي، وتجديد المنحة بات مسألة وقت وإجراءات روتينية لا غير.

ارتح أنت ولا تشغل بالك بالجامعة.

ساعدته على الاستلقاء، ودثرت قدميه بعناية ميكانيكية تخلو من اللهفة لكنها تؤدي الواجب بأعلى كفاءة، ثم انسحبت هادئة نحو غرفتها.

أغلقت باب غرفتها الصغيرة بالمزلاج. كانت الغرفة تعكس تفاصيل سولارا لقديمة:

باقة من الورد المجفف المعلق مقلوباً على الحائط، بضع روايات كلاسيكية مرتبة بعناية، وإضاءة صفراء خافتة تمنح المكان شعوراً بالدفء الزائف. تنصلت آسيا من ذلك كله ببرود.

جلست خلف المكتب الخشبي الصغير، ولم تخلع ثيابها ولا حذاءها؛ كانت في حالة استنفار تليق بجندي على جبهة.

أخرجت المخطوطة القديمة ترانيم الظل الراحل من حقيبتها ووضعتها جانباً كمرجع أساسي، ثم مدت يدها واستلت من الدرج المكسور الدفتر البنفسجي — المستودع السري الذي تدون فيه ضعفها، كوابيسها، ومشاعرها المفرطة.

فتحت صفحة بيضاء، وأمسكت بقلم الحبر الأسود. لم تكن حركة يدها تشبه خط سولارا المعتاد بأحرفه الدائرية المندفعة التي تعكس التردد؛ بل تحرك السن بحركة حادة، مائلة، وقاطعة كالشفرات الإسمنتية.

حينها عادت شخصية آسيا تملك سولارا مرة أخرة كتبت آسيا في الدفتر، مستهدفة وعي سولار المستتر خلف حجب الدفاع العصبية:

لقد تسلمتُ القيادة الليلة يا سولارا نيابة عنكِ.

عاصم ظن أنه يبتز فتاة مكسورة الجناح يمكن سحق مستقبلها بتقرير أكاديمي مبطن، ولم يدرك بغبائه وجشعة أنه فتح الباب للشخص الخطأ.

سأحميك من قسوة العالم، سوف أكون خيرا حليف لكِ يا سولارا ، وسأستعيد المنحة، وسأجبر هذا الطاغية على دفع الثمن من رصيده الأكاديمي والأخلاقي.

لكن بالمقابل، عليكِ أن تظلي في قاع الظل لبعض الوقت؛ مشاعركِ الرقيقة وخوفكِ اللاهب هما الوقود الذي يتغذى عليه هؤلاء.

الخوف خطيئة سيكولوجية لا نملك ترف ارتكابها الآن.

أن كنت تريدي أن تستدعيني يا سولارا. قولي أو أكتبي

☆"أنا شظايا نجمة، ترفض أن يبتلعها الظلام."☆.

حينها فقط آتي لأمنحك قوة لمواجهة هذا العالم...

وضعت آسيا القلم جانبا ، ثم تصفحت المخطوطة التي بحوزة سولارا تصفحت الأوراق الأخيرة للمخطوطة تحت الضوء الشاحب، لتتوقف عند إحدى الصفحات الذي كتبت بخط يد مرتجفة :

عاصم ليس سوى قطعة حصان في لعبة الشطرنج.

تتحرك بشكل ملتوٍ لحماية الملك المختبئ خلف المكاتب العاجية.

لحظة صمت في الأرجاء ...

هذا... هذا خط يشابه خط رغد، إذن يبدوا أن رغد وصلت لهذه المخطوطة بالفعل، وعرفت حقيقة هذه المنظومة بالكامل ، لكن يبدوا أنهم أوقفوها قبل إخباري بذلك....

أدركت آسيا اللعبة تماماً؛ اختفاء رغد لم يكن جريمة شغف أو غياب عشوائي، بل تصفية حسابات أدبية وسياسية داخل أسوار الجامعة، وعاصم هو الأداة التنفيذية التي تحاول الآن التضحية ببيدق جديد اسمه سولارا لإغلاق الملف.

أغلقت الدفتر البنفسجي والمخطوطة التي قامت بطباعتها، ووضعتهما في مكان آمن.

استلقت على سريرها بكامل هندامها، وعيناها معلقتان بالسقف، تراقب ظلال الليل وهي تتحرك.

لم تكن تشعر بالنعاس، بل كانت عجلاتها الفكرية تدور ببرود مرعب، ترتب النقلات، وتصيغ الردود، مستعدة للمواجهة الصباحية التي ستصدم الجميع في الكلية.

الفصل الثاني:

لا يُولد المحارب من رحم السلام، بل يُنحت في قاع الهاوية من صقيع الرماد.

انقشع ليل المدينة عن صباحٍ خريفي شاحب. لم تكن خيوط الشمس تحمل دفئاً، بل كانت مجرد إضاءة بيضاء محايدة تسللت عبر زجاج الحافلة لتكشف الملامح الجامدة للركاب.

استيقظت سولارا، غير مدركة لتلك الراحة التي شعرت بها ليلة الامس...

فتحت دفترها وقرأت ما كتبته تلك التي تدعى اسيا، في بادئ الامر كانت تشعر بقليل من خوف الممزوج بغرابة لكنها سرعان ما شعرت براحة اذ أن هناك طاقة أمانة تستطيع أن تستدعيها لكبح خوفها وتوترها....

تذكرت أن اليوم سوف يكون يوم صعب في جامعة، لكنها سرعان ما أدركت أنها تستطيع أن تستدعي آسيا...

ثم قالت في نفسها إن اليوم يا آسيا سيكون صعباً.

لذلك تولي الإشراف عليه...

"أنا شظايا نجمة، ترفض أن يبتلعها الظلام."

☆_____ آسيا _____☆

جلستُ في المقعد الخلفي، أراقب حركة الشارع بركود تام.

كانت سولارا في أعماقي تحاول الاستيقاظ، تضرب جدران وعيي برغبة عارمة في البكاء كلما تذكرتْ وجه والدها وهو يودعها عند الباب، لكنني كنتُ أضغط عليها، أعيدها إلى القاع الصامت؛ فاليوم ليس يوم العواطف.

اليوم تُدار النقلة الأولى على رقعة عاصم.

حين وطئت أمامي ساحة الجامعة، كان الجو مشحوناً بترقب غير معتاد، كان مشهد مختلفاً هذه المرة بطريقة غريبة....

سيارتا شرطة تتربعان أمام المبنى الرئيسي، والطلبة يتجمعون في حلقات صغيرة يتبادلون الهمسات.

تحركتُ بينهم كظلٍ لا يثير الانتباه، حتى وصلتُ إلى مبنى الكلية. عند نهاية الممر، كان هناك عسكري يقف أمام باب مكتب رئيس القسم، وبجانبه الدكتور عاصم الذي كان يبدو متوتراً، يمسح حبات العرق عن جبينه رغم برودة الطقس.

ما إن رآني عاصم حتى التمعت عيناه ببريق خبيث، منادياً:

"سولارا!

يا ابنتي تعالى إلى هنا لو سمحتِ.

هناك من يريد التحدث إليكِ"...

دخلتُ المكتب ولم يكن هناك أثر للخوف في نبضي.

الغرفة التي ارتعدتْ فيها سولارا بالأمس بدت لي اليوم مجرد مسرح دمى صغير. خلف المكتب كان يجلس المحقق صلاح، رجل أربعيني بعينين غائرتين ونظرة فاحصة اعتادت تشريح أكاذيب المجرمين.

لم أنتظر أن يأذن لي بالجلوس، سحبتُ المقعد الخشبي بهدوء وجلست، وضعتُ حقيبتي على ركبتي وثبتُّ نظري في عينيه مباشرة. رأيتُ في ملامحه ارتباكاً طفيفاً؛ فالفتيات في سن سولارا عادةً ما ينهرن باكيات في ظروف كهذه، لكنه واجه كتلة من الجليد .

سأل المحقق صلاح وهو يفتح دفتراً صغيراً يبدوا أنه مدونة ما:

إذن يا ابنتي ، أريد منكِ ألا تخافي فقط نريد أن نأخذ بعض المعلومات....

- هل أنتِ سولارا، زميلة رغد في السكن الجامعي والمشروع الأكاديمي، وسمعت أنك صديقتها أيضاً ؟
- صحيح كلامك يا حضرة المحقق....
- الدكتور عاصم أفاد بأنكِ كنتِ آخر من التقى بها في ممر قبو الجامعة القديم، وأن هناك خلافاً بينكما حول سرقة مشروع تتعلق ببحث التخرج.
- ما رأيك، هل هذا الكلام، هل هو صحيح..

☆_____آسيا_____☆

لم ألتفت نحو عاصم الواقف عند الباب، بل ظللتُ مسمرة نظرتي بوجه المحقق، سولارا بداخلي خائفة ومترددة وأنا أحاول أن أسيطر على موقف بأسلوبي خاص، بعيداً عن خوفها الداخلي...

الخلاف الأكاديمي لا يصنع اختفاءً مفاجئاً يا سيادة المحقق.

والدكتور عاصم يخلط بين التدقيق في المراجع وتشابهها وبين الخلاف.

رغد لم تكن خصمتي، بل كانت تبحث عن شيء محدد في الأرشيف القديم، شيء يتعلق بتاريخ المنح وطرق التي تجري بها القواعد في هذه الجامعة.

ربما من الأفضل أن تسأل الدكتور عاصم عن سبب قلقه من الأبحاث التي تجرى في ذلك القبو.

شحب وجه عاصم فجأة، وخطا خطوة للأمام قائلاً بغضب مكتوم:

"ما هذا الهراء؟!

المحقق يسألكِ عن مكان زميلتكِ، وأنت آخر من كان معها، فكيف تهينيني ، أجيبي بقدر سؤاله ولا تطيلي الحديث بتفاهات."

☆_____ سولارا _____☆

كنتُ أسمع حواري مع المحقق وأنا أرتجف في قاع المظلم.

آسيا تلعب بالنار!

إنها تلمح لفساد عاصم أمام الشرطة دون دليل قاطع.

أردتُ أن أصرخ بها:

توقفي! سيلغون منحتنا، سيموت أبي بلا دواء!...

لكن يديها اللتين أتحكم بهما الآن كانتا مسترخيتين تماماً فوق الحقيبة، ولم تمنحني آسيا حتى فرصة لتغيير نبرة الصوت.

كانت تدير المواجهة بكبرياء انتحاري مرعب...

☆_____آسيا_____☆

التفت المحقق صلاح نحو عاصم، ثم أعاد نظره إليّ، وبدا أن لغتي الفصحى المتزنة وثقتي المطلقة قد أثارت فضوله الذكي:

"الأرشيف القديم؟ وماذا عساها أن تجد هناك؟"

أخرجتُ من حقيبتي ورقة صغيرة مطوية، كنت قد نقلتُ فيها الشيفرة الأولى من مخطوطة، وضعتها على المكتب ودفعتا بأطراف أصابعي نحوه.

هذه أبيات شعرية تركتها رغد في كتاب استعرتهُ منها قبل أسبوع. تقول الأبيات:

إذا غاب الوزير خلف الحجاب

فابحث عن الحصان في خزانة الحساب..

في جامعتنا يا سيادة المحقق، خزانة الحساب ليست مجرد مجاز، بل هي الخزانة رقم 13 في قبو الأرشيف السري.

هناك بدأت رغد بحثها، كونها شخصية فضولية تحب الاستكشاف اي شئ جديد لصناعة محتوى غريب ، وهناك تملك الجامعة أسراراً تفوق حجم بحث تخرج بسيط.

ساد صمت مطبق في الغرفة. المحقق صلاح التقط الورقة وتأمل الخط، بينما كان عاصم يتراجع خطوة للخلف وهو يشعر بأن رقعة الشطرنج التي أعدها لسحق سولارا، بدأت قطعها تتحرك في اتجاهات لم يحسب لها حساباً. حصان الشرطة دخل اللعبة، لكن آسيا هي من كانت تحرك البيادق ببرود قاتل.

تغيرت تعابير وجه المحقق صلاح فوراً؛ انخفضت حاجباه، والتقط الورقة بيده متفحصاً الحبر والخط ونوعية الورق بدقة، ثم رفع عينيه ببطء شديد يسودها صمت رهيب نحو الدكتور عاصم.

في تلك اللحظة، شحب وجه عاصم بالكامل، وتلاشت حمرته الأكاديمية الفخمة، واستحالت ملامحه إلى قناع مشوه من الذعر المكتوم والاضطراب الذي حاول مواراته بالتحرك نحو النافذة.

قال عاصم ونبرته تهتز وتتقطع لأول مرة منذ بدء المواجهة:

"إنه كلام فتاة لا تدرك ما تقول يا سيادة المحقق، أرجوا ألا تأخذ كلامها على محمل الجد .؟"

"هذه مجرد ترهات وهلوسات طالبة تعاني من ضغوط الامتحانات وضيق الوقت، تحب أن تلعب مع صديقتها دور المستكشفات .... الأرشيف القديم مغلق بالكامل بقرار رسمي من مجلس الأمناء منذ سنوات طويلة، ولا يحتوي في جوفه سوى على أوراق تالفة وسجلات منتهية الصلاحية لا قيمة لها."

وقف المحقق صلاح من خلف مكتبه بحركة حاسمة، وأغلق دفتره الجلدي الأسود مسبباً صوتاً جافاً.

نظر إلى سولارا بنظرة مطولة تحمل الكثير من التقدير والغموض ثم قال:

"شكراً لكِ يا آنسة سولارا. شهادتكِ وإفادتكِ تمت تدوينهما بالكامل في المحضر الرسمي.

يمكنكِ المغادرة الآن والتوجه إلى قاعة المحاضرات لمتابعة يومكِ الدراسي، وسنستكمل نحن فحص هذه المعطيات الجديدة بطريقتنا الخاصة."

انسحبت سولارا من المقعد بذات الهدوء الرتيب والاتزان الصارم. التقطت حقيبتها، وتحركت بخطى واثقة نحو مخرج المكتب الخشبي.

وقبل أن تضع يدها على المقبض لتفتح الباب، التفتت برأسها قليلاً لتلتقي عيناها بعيني الدكتور عاصم لثانية واحدة أخيرة؛ لم تكن نظرة تشفٍّ عابرة أو تهديد صبياني،

بل كانت نظرة رمادية، ساخرة، ومستقرة، كنظرة لاعب شطرنج محترف يراقب بيدقاً يخطو خطوته الأولى برعب نحو الهاوية الحتمية...

لم تكن ردهة الكلية قد استعادت هدوءها بعد عندما انصرف رجال الشرطة.

كانت الخطوات المبتعدة للمحقق صلاح تترك خلفها صدىً ثقيلاً على الأرضية الرخامية المتآكلة.

تحركت آسيا نحو المخرج الجانبي المؤدي إلى حدائق الكلية الخلفية، حيث تقل حركة المشاة وتتحول الممرات إلى مساحات معزولة تفوح منها رائحة شجر السرو والندى الراكد.

لم تكد تقطع نصف الممر حتى سمعت وقع خطوات سريعة، عنيفة، تنم عن غضب مكتوم يلاحقها.

لم تلتفت، ولم تسرع خطوتها، بل حافظت على إيقاعها الرتيب حتى تجاوزها ظل ضخم حجب عنها الضوء الضئيل المتسلل من النوافذ العلوية.

كان الدكتور عاصم يقف أمامها الآن، مستنداً بذراعيه على الجدارين الجانبيين للممر الضيق، ليغلق عليها منفذ العبور بالكامل.

كان وجهه محتقناً، والوريد في صدغه الأيمن ينبض بعنف كأنه يوشك على الانفجار.

تلاشت المسافة الأكاديمية تماماً، وحلت محلها غريزة حوت يشعر بأن الشبكة بدأت تضيق حول زعانفه.

خرج صوته فحيحاً منخفضاً، حاداً كالشفرة، متجنباً أن يصل الصدى إلى الردهة الرئيسية :

- أنتِ تلعبين بالنار يا سولارا...

من أين لكِ بتلك المعلومات؟..

لا بل من أين اكِ بهذه الثقة العمياء...

ومن سمح لكِ بنبش القذارات في قبو لا يخصكِ؟

رغد كانت غبية، ظنت أن الورق القديم قد يحميها ، أو أته سوف يعيد لها حقها في طابور المساعدات، لكنها عوقبت وفشلت.

وأنتِ تسيرين في ذات الجنازة.

نظرت آسيا إلى عينيه المحمرتين دون أن ترمش.

كان جمودها مستفزاً، كأنها تنظر إلى جدار إسمنتي صامت وليس إلى رجل يملك مصيرها الأكاديمي....

قالتها بنبرة منخفضة للغاية، لكنها كانت حاسمة ومستقرة:

- النار لا تحرق الجليد يا دكتور، بل تحوله إلى ماء يغرق الجميع،"

رغد لم تكن غبية، خطؤها الوحيد أنها واجهتك بلغة العاطفة والعدالة، وهي لغة لا تفهمها المنظومة هنا، أنت تستحق أن يتحدث معك باللغة التي تفهما ..

أما أنا، فلا أبحث عن عدالة؛ أنا أرتّب النقلات فقط.

الحصان الذي وضعته أمام المحقق صلاح لم يكن اتهاماً، بل كان تحذيراً لك لتدرك أن الرقعة لم تعد ملكك وحدك، لا تظن أنك الوحيد البارع في لعبة الشطرنج.

مال عاصم برأسه نحوها، وتراجعت نبرته الغاضبة ليحل محلها تهديد مبطن وأكثر قذارة:

والدكِ.. أبو أحمد.

هل تظنين أن جسده الواهن سيتحمل انقطاع المصل الأسبوعي؟

لجنة المنح ستجتمع بعد غدٍ صباحاً، وبكلمة واحدة مني، سيتحول تقريركِ الطبي إلى ورق مهمل في سلة المهملات، وتتحول منحتكِ إلى طالب آخر.

سيموت والدكِ في سريره وأنتِ تبحثين عن رموز شطرنج في الأرشيف.

تذكري هذا جيداً قبل أن يطلبكِ المحقق مجدداً، فكري ما مقدار الغضب الذي سوف ينهال عليك إن تجاوزتي حدودك مرة اخرى...

اعتدل في وقفته، ونفض سترته بحركة حانقة، ثم استدار ومشى مبتعداً بخطى ثقيلة، تاركاً خلفه ثقلاً نفسياً كافياً لسحق أي فتاة في العشرين من عمرها.

لكن آسيا لم تتحرك، انتظرت لثوانٍ حتى اختفى صوته تماماً، ثم مدت يدها وجست نبض معصمها الأيسر؛ كان منتظماً، هادئاً، ولم يتجاوز السبعين نبضة في الدقيقة.

أصلحت وضع حقيبتها على كتفها، واستدارت لتكمل طريقها نحو التسوية.

عاصم قدّم لها لتوّه المعلومة الأهم دون أن يدري:

لجنة المنح تجتمع بعد غد، وهذا يعني أن لديها أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة لإنهاء اللعبة وكش ملك.

عادت آسيا إلى التسوية، تسللت إلى الممرات المظلمة للأرشيف بخطوات لا تردد فيها حتى بلغت الخزانة رقم (13).

سحبت المخطوطة الأصلية التي تركتها في المرة السابقة "ترانيم الظل الراحل" من صندوق الأبنوس.

هذه المرة، لم يكن الهدف القراءة السطحية، بل تفكيك البنية التحتية للنص؛ فعاصم أكد لها دون وعي أن الماضي والحاضر يشتبكان في هذا المكان.

قلبت الصفحات المتآكلة حتى بلغت منتصف المخطوطة، حيث يتغير إيقاع الحبر مستحيلاً إلى لون بني داكن، باهت ومخلوق بالزيت.

كان هذا الجزء يحتوي على نصوص أدبية تبدو في ظاهرها تشريحاً سيكولوجياً لشخصيات روائية انتحرت، لكن بالتدقيق في الهوامش السفلى، تبين أن الكاتب المنتحر قبل ستة أعوام (كان يوقع باسم الظل الراحل) قد ترك اعترافات ممتدة بالتواريخ والأسماء.

كانت النصوص تتحدث عن شبكة ابتزاز مالي وأكاديمي أدارتها رؤوس كبيرة في الجامعة عام 2021، وهي ذات السنة التي أشارت إليها رموز رغد.

الشبكة كانت تستهدف ملفات المنح والتبرعات الخارجية المقدرة بمئات الآلاف، وتجبر الأساتذة الشرفاء على التوقيع على تقارير مزورة تحت التهديد بتشويه السمعة أو حرمان عائلاتهم من الرعاية، تماماً كما يفعل عاصم الآن.

وقعت عيناها على سطر مكتوب بخط يبدوا حديث نسيباً في نهاية الصفحة المئة:

الملك لا يجلس في قاعة المحاضرات، الملك يدير القلعة من مبنى رئاسة الجامعة.

عاصم ليس سوى عضوا حراسة يتقاضى ثمن صمته بكرسي العمادة القادم.

الملف الأصلي لعام ٢٠21 مخفي خلف اللوحة الزيتية في مكتب رئيس القسم.. النقلة القادمة تتطلب التضحية بالوزير.

استقامت آسيا في جلستها، وأطبقت على المخطوطة بقوة.

الصورة اكتملت بالكامل؛ اختفاء رغد كان بسبب وصولها إلى هذا الحد من الشيفرة ومحاولتها مواجهة الرؤوس الكبيرة في رئاسة الجامعة دون غطاء حمائي.

عاصم ذعر لأن الورقة التي قدمتها آسيا للمحقق صلاح تعني أن الشرطة ستبدأ بالنبش في القبو، وإذا وصلوا إلى اللوحة الزيتية في مكتبه، ستنتهي المنظومة بأكملها.

نظرت آسيا إلى العتمة المحيطة بها، وشعرت بوعي سولارا يتحرك في الأعماق برعب وجزع على حياة والدها والمنحة المهددة بعد غد. لكن آسيا أخرست ذلك الصوت الداخلي ببرود رخامي؛ فالخطة الآن انتقلت من الدفاع إلى الهجوم الشامل.

الفصل الثالث:

شيفرة الخزانة 13 (الأسرار المتقاطعة)

كانت عقارب الساعة الجدارية في الصالة الصغيرة تشير إلى الرابعة والربع فجراً، حين انفتحت جفنا سولارا فجأة في عتمة غرفتها المطبقة.

استيقظ الجسد، لكن الوعي الذي عاد إلى السطح هذه المرة لم يكن وعي آسيا الرخامي، بل كانت سولارا الحقيقية، الضعيفة، التي غابت عن الوعي طوال ساعات المساء الماضية كمن غرق في بئر عميقة بلا قاع.

كان سكون الفجر في الشقة القديمة يفوح برائحة المسكنات الراكدة، ممزوجة ببرودة قارسة تسللت من شقوق النافذة الخشبية لتستقر في عظامها.

تردد صدى أنفاس والدها، أبو أحمد، الثقيلة والمتقطعة من خلف الستار الفاصل للصالة، وكان كل صوت شهيق يخرج من صدره المتعب ينزل على قلبها كضربة سوط.

شعرت بثقل غريب يكبّل أطرافها، وكأن دماءها تحولت إلى رصاص مسكوب. تذكرت كل شيء؛ تذكرت كيف واجهت آسيا المحقق صلاح ببرود انتحاري، وكيف ألقت بورقة الشيفرة على مكتبه، وتذكرت وهو الأشد رعباً فحيح الدكتور عاصم في الممر الجانبي وهو يهددها بقطع دواء عن والدها وشطب اسمها من كشوفات المنحة التعليمية.

جلست على حافة السرير، وضمت ركبتيها إلى صدرها، وأسندت ذقنها عليهما وهي ترتجف بعنف تشنجي لم تقو على كبحه.

الخوف، ذلك الوحش الكامن الذي نجحت آسيا في تخديره وعزله، استيقظ الآن بكامل ضراوته وجوعه، لينهش ما تبقى من تماسكها النفسي.

فكرة أن لجنة المنح الأكاديمية ستجتمع بعد أقل من أربع وعشرين ساعة، وأن اسم والدها قد يُشطب نهائياً من كشوفات الرعاية الطبية الاستثنائية التي توفرها الجامعة، كانت كفيلة بجعل دموعها الحبيسة تنفجر بغزارة، حارقةً وجنتيها الشاحبتين.

همست بصوت مبحوح ومخلوق بالبكاء وهي تتأمل كفيها المرتعشتين في الظلام:

ماذا فعلتِ بنا يا آسيا؟.

"لقد ألقيتِ بنا في جوف العاصفة.. نحن لا نملك نفوذاً، ولا ظهراً يحمينا، وعاصم يستطيع سحقنا بجرّة قلم واحدة.

كيف تجرأتِ على تهديده بالشرطة؟"

نهضت من سريرها بتعثر، وقادتها قدماها الحافيتان فوق البلاط البارد نحو المطبخ الصغير لتعد جرعة الدواء الصباحية لوالدها. كان الضوء الأصفر الشاحب للمصباح الصغير يعكس ظلال أواني الطهي القديمة المترتبة على الرفوف.

سحبت علبة المصل الكيميائي من الثلاجة، وقرأت الأرقام المطبوعة على غلافها بتدقيق يملؤه الذعر؛ لم يتبق في الأنبوب الزجاجي سوى جرعتين فقط، وثمن العلبة الجديدة يعادل ثمن قوت أربعة أشهر كاملة لا تملك منها قرشاً واحداً.

شعرت بغصة حادة في حلقها كأنها زجاج مكسور، أرادت البكاء والانهيار ، لا بل أنه خلال الدقائق القادمة لربما تقوم بانهيار عصبي، حينها بلغ العجز أقصى ذروته وقبل أن يوشك جهاز العصبي على الانفجار قررت أن تستدعي آسيا لعلها تهرب من ضعفها وتعب الاعصاب الذي تسببت به تصرفات آسيا الجريئة...

"أنا شظايا نجمة، ترفض أن يبتلعها الظلام."...

وفي تلك اللحظة بالذات، أحست ببرودة مألوفة، حاسمة وصارمة، تبدأ بالتسلل من أسفل عمودها الفقري لتنتشر في عروقها كالمصل المجمد.

كانت تلك آلية الدفاع القصوى تستجيب لنداء الاستغاثة البيولوجي؛ تراجعت الدموع إلى الوراء، واستقامت وقفتها، وتحولت ملامح وجهها في مرآة المطبخ الصغيرة من التشنج الباكي إلى الجمود الرخامي الصامت.

لقد غاصت سولارا مجدداً في العتمة، وعادت آسيا لتمسك بزمام المقود، متمتمه في سرها بنبرة جافة لا تعرف الشفقة:

لا تخافي مني يا سولارا ان عالمكم قاسي بحاجة لشخصيتك القوية الدموع لا تشتري الدواء يا سولار، دعي العواطف لي.. فالرقعة بحاجة إلى نقلة هجومية الآن....

في تمام الساعة السابعة صباحاً، كانت أسوار الجامعة الضخمة تلوح من بعيد عبر ضباب كثيف غلف البنايات الإسمنتية كأنه كفن رمادي عتيق.

كانت الحركة في الساحات الخارجية للجامعة راكدة، شبه منعدمة؛ فالطلبة يفضلون البقاء في قاعات الانتظار الدافئة أو المقاهي المحاذية للسياج بانتظار تبدد برد التشرين الصباحي، والشرطة خففت من تواجدها الظاهر بعد أن نقل المحقق صلاح ملف الاستدلال الأولي إلى مقر المديرية لمطابقة الخطوط والشيفرة.

تحركت آسيا بين ظلال الأشجار بخطى مدروسة، رتيبة وخفيفة، متجنبة تماماً الممر الرئيسي المؤدي إلى قسم الأدب العربي حيث يقبع مكتب الدكتور عاصم. كان هدفها واضحاً، دقيقاً، ومحسوباً بناءً على الأسطر التي فكت رموزها بالأمس في القبو: الوصول إلى مكتب رئيس القسم ذاته في وقت غيابه، وتحديداً في تلك الفجوة الزمنية التي تسبق وصول السكرتيرة في الثامنة والنصف صباحاً.

☆_____آسيا _____☆

تسللت عبر الباب الخلفي المخصص لعمال الصيانة والخدمات، حيث كانت الإضاءة شبه منعدمة، والرائحة تعبق بمزيج حاد من الكلور والمنظفات الكيميائية الرخيصة. صعدت السلالم الإسمنتية الدائرية خطوة بخطوة، ولم يكن صدري يعلو أو يهبط جراء الصعود؛ فالبرود السيكولوجي الذي يغلفني كان يتحكم حتى في معدل ضربات قلبي.

كل خطوة كانت تتطلب حذراً مضاعفاً؛ فالوقوع في هذا المكان وفي هذا التوقيت يعني توجيه تهمة جنائية مباشرة بالسرقة أو التجسس، وهي الورقة التي يبحث عنها عاصم لينهي وجودي ، أو يجعلني أكف عما أفعله، يجب على أن أكون أكثر حذرا، لأثبت لك يا سولارا أنني على صواب .

وصلت إلى الطابق الثالث، ووقفت في نهاية الممر المهجور أمام الباب الخشبي الثقيل لمكتب رئيس القسم، والمصنوع من خشب البلوط الداكن عليه شعار الجامعة النحاسي.

وضعت أذني اليمنى على سطح الخشب البارد، واستمعت لثوانٍ طالت كأنها دهر لأي حركة أو أنفاس بالداخل؛ كان السكون مطلقاً ومطمئناً. وبينما كنت أنصت،

تذكرت تلك اللحظة قبل يوم، حين أدركتُ أن الحصول على المفتاح البرونزي من مكتبه المستحيل هو مفتاحي الوحيد للحقيقة.

راقبتُ عاصم من خلف ستائر القاعة وهو يضع سلسلة مفاتيحه على الطاولة الجانبية ليغسل يديه، تسللتُ كخيط دخان، دقات قلبي –في تلك المرة– كانت تقرع كالطبول، بينما كانت يداي ترتجفان تحت قفاز جلدي أسود. التقطت نسخة من قالب المفتاح بصلصال حراري كنت قد جهزته مسبقاً، مستلهمة هذه الفكرة من إحدى الأفلام ،ضغطتُ بقوة بينما كان صوت الماء يغطي على أنفاسي المحبوسة، ثم أعدت المفتاح لمكانه قبل أن يلتفت بجزيء من الثانية. كان نجاحي في صب المفتاح برونزياً لاحقاً هو ما قادني إلى هذه اللحظة؛ إلى هذا الباب.

أخرجت المفتاح البرونزي من جيبي، وأدخلته في جوف القفل ببطء شديد، ملميمتراً تلو الآخر، حريصة كل الحرص على ألا يصدر أي صرير معدني قد يثير انتباه عامل النظافة الذي كان يجر عربته الحديدية في الطابق السفلي.

دار القفل دورتين كاملتين بنجاح، فدفعت الباب ولجت إلى داخل الغرفة الفخمة، ثم أغلقت الباب خلفي وأنزلت المزلاج الداخلي فوراً، لأصبح في معزل عن العالم الخارجي.

تلاقت أنفاسي الباردة مع هواء الغرفة الدافئ الفاخر، الذي تفوح منه رائحة التبغ الإنجليزي والسجاد العجمي العتيق وخشب..

لم أضيع ثانية واحدة في تأمل الفخامة الأكاديمية التي تُبنى على حساب دماء المتفوقين؛ بل توجهت عينايَّ مباشرة كالسهم نحو الهدف الرئيسي: اللوحة الزيتية الضخمة ذات الإطار الذهبي المزخرف التي تتوسط الجدار الواقع خلف المكتب الجلدي الكبير، والتي تمثل مشهداً كلاسيكياً لخيول برية متمردة تركض في وادٍ سحيق يغطيه الضباب.

تقدمت نحو المكتب بخطى ثابته ومستقرة، دون أي تراجع أو تردد. صعدت فوق المقعد الجلدي الدوار، متجاهلة احتمالية ترك أثر لحذائي فوق جلده الفاخر، لأتمكن من الوصول بيدي إلى الحافة العلوية للإطار الذهبي الثقيل. كانت أصابعي تتحرك بهدوء ميكانيكي بارد؛ رفعت الطرف الأيمن للإطار برفق شديد وميلان دقيق لتجنب إحداث أي صوت احتكاك بالجدار الإسمنتي.

ظهر خلف اللوحة تجويف مربع صغير ومظلم محفور داخل الجدار، مغطى بقطعة من القماش الصوفي الرمادي لحمايته من الأتربة والرطوبة.

مددت يدي اليمنى داخل التجويف، فلامست أصابعي سطحاً معدنياً بارداً وقاسياً. سحبته كان صندوقاً حديدياً صغيراً، مستطيلاً، لكنه كان مقفلاً بقفل رقمي ميكانيكي قديم يتكون من أربع خانات دائرية. في تلك اللحظة، شعرت بسولارا تنتفض داخلي؛ تلبسني رعبٌ مفاجئ، وضربات قلبي بدأت تتسارع بعنف حتى كدت أسمع صدى نبضي في أذنيّ.

تسرب خوفها إليّ كسمٍ بارد، مما جعل يداي ترتجفان بشكل لا إرادي بينما كنت أنزل من فوق المقعد بسلاسة لأضع الصندوق على المكتب الخشبي المصقول تحت الضوء الضعيف المتسلل من وراء الستائر المخملية.

نظرت إلى العجلات المعدنية للقفل، وعدتُ بذاكرتي البصرية إلى الصفحة المئة من المخطوطة القديمة، وتحديداً إلى السطر المكتوب بخط تلك اليد التي بدت كأنها ترتجف: "الماضي يعيد نفسه بذات الشيفرة، والتاريخ لا يمحو الأرقام". سنة تأسيس الشبكة الأولى واختلاس التبرعات كانت ٢٠٢١.

أدرت العجلات بأصابع مرتجفة؛ جربت الرقم (٢٠٢٠) ظناً مني أنها سنة التخطيط، لكن القفل ظل صامداً بقسوة. شعرت بضيق في تنفسي، وكأن سولارا تحاول التراجع، فأدخلت المحاولة الثانية (١٩٩٨) تاريخ التأسيس القديم، لكن لا شيء حدث.

طقة خفيفة جاءت رداً على خطئي، فزاد توتري وتصبب العرق البارد على جبيني. أغمضت عيني، أجبرتُ نفسي على الهدوء، وعدتُ للتركيز: (٢).. ثم الرقم (٠).. ثم الرقم (٢).. وأخيراً الرقم (١).

سُمعت طقة معدنية خفيفة وحاسمة أعلنت استسلام القفل الميكانيكي. فتحت غطاء الصندوق ببطء، ليظهر في جوفه ملف ورقي أصفر سميك متآكل الأطراف بفعل الزمن والعفن، تفوح منه رائحة قوية للرطوبة القديمة والورق المتروك للموت.

كان الغلاف الخارجي يحمل ختماً سرياً أحمر قانيا يعود لإدارة الشؤون القانونية والمالية للجامعة قبل ستة أعوامً.

فتحت الصفحة الأولى، لأجد أمامي وثائق وقوائم بالأسماء، والتواريخ، وأرقام الحسابات البنكية الخارجية؛ وفي مقدمة تلك الأسماء، كمسؤول أول عن تزوير تقارير المنح الأكاديمية واختلاس تبرعات المانحين عام ٢٠٢١، كان اسم عاصم عندما كان معيداً صغيراً يبيع شرفه لأجل الترقي، وبجانبه اسم شخص آخر يشغل الآن منصب نائب رئيس الجامعة للشؤون المالية والإدارية يدعى مروان.

لم تكن رغد تبحث عن مجرد سرقة أدبية تافهة لخطتها البحثية؛ بل عثرت على المستند التاريخي الأسود الذي يملك القدرة الصاعقة على هدم الهيكل الأكاديمي بأكمله على رؤوس الطغاة القابعين فيه.

☆_____ الراوية_____☆

لم تمنح آسيا نفسها ترف الغرق في ذهول الكشف؛ فالمشاعر، حتى لو كانت نشوة الانتصار أو صدمة المفاجأة، لم تكن سوى ثغرات أمنية في نظامها المعرفي الجديد.

كان الوقت يتحرك كعدّاد رقمي صارم، وعقارب الساعة المكتبية النحاسية تقترب بحدة من الثامنة والثلث صباحاً، وهو الموعد الذي يبدأ فيه موظفو المبنى بالتوافد. استلت هاتفها الصغير من جيب معطفها، وبثبات ميكانيكي تام لا تشوبه لفتة ذعر واحدة، بدأت بتصوير كل وثيقة من وثائق الملف الأصفر.

كانت حريصة على زوايا الإضاءة، ووضوح الأسماء الثلاثية، وتطابق الأرقام الحسابية، والأهم من ذلك كله، الأختام الرسمية باللون الأحمر القاني التي تمنح الورق قوته القانونية القاتلة.

بعد أن تأكدت من تخزين النسخ الرقمية في وحدة الذاكرة المشفرة لهاتفها، أعادت الأوراق الصفراء إلى جوف الصندوق الحديدي بذات الترتيب الذي وجدتها عليه.

أغلقت الغطاء، وأدارت العجلات الرقمية لتضيع الرقم ٢٠٢١ خلف أرقام عشوائية باردة. صعدت مجدداً فوق المقعد الجلدي، وأعادت الصندوق إلى حجرته الإسمنتية خلف اللوحة الزيتية، ثم عدلت وضع الإطار الذهبي للخيول البرية مليمترًا تلو الآخر، متفحصة الخيوط والزوايا للتأكد من عدم وجود أي تفاوت يشي بأن يداً قد عبثت بالمكان.

☆_____آسيا_____☆

نزلت واستقر جسدي خلف مكتب رئيس القسم الفخم. نظرت إلى القلم الأحمر؛ شعرتُ بترددٍ قاتل، يدي التي كانت ثابتة قبل لحظات بدأت ترتجف.

هل هذه الرسالة هي طوق نجاتي، أم هي حبل المشنقة الذي سألفه حول عنقي؟

نظرت إلى الورقة البيضاء، وتخيلت وجه عاصم وهو يقرؤها. كانت سولارا همس في أعماقي: تراجعي، سيقتلوننا.

لكنني سحبت القلم بقوة، وبدأت الكتابة بحدة، محولةً خوفي إلى كلمات لا ترحم:

إلى الملك المختبئ خلف القلعة العاجية.. الوزير لم يعد قادراً على حماية الحصان، والملف الأسود لعام ٢٠٢١ بات يملك أجنحة رقمية خارج جدران هذا المكتب. أي أن هذه الأدلة مخزنة في مكان ما، ولن أتردد في إرسالها للجهات المختصة في أي لحظة. لجنة المنح غداً صباحاً هي النقلة الأخيرة في مباراتكم؛ إما تجديد منحة الطالبة سولارا بالكامل مع اعتذار مكتوب وموقع من إدارة القسم يُسلم لها يداً بيد، أو تسليم النسخة الرقمية الكاملة للمحقق صلاح قبل غروب شمس هذا اليوم. الخيار لكم.. كش ملك.

طويت الورقة ببرود، وأغلقت المغلف. وقبل أن أغادر، كان عليّ إعادة الصندوق لمكانه.

صعدت المقعد، رفعت اللوحة، وفجأة! تجمد الدم في عروقي؛ سمعت وقع أقدام ثقيلة قادمة من الممر، وصوت مفاتيح تُصطدم ببعضها بوضوح.

تراجعت دقات قلبي إلى أحشائي من شدة الخوف.

هل أُكشف؟

تجمدت في مكاني، يداي لا تزالان تمسكان بالصندوق. هدأت الأنفاس، وتلاشت الخطوات لتكون مجرد موظف خدمة عابر.

تنفستُ بعمق، وبحركة خاطفة وواثقة وضعت الصندوق في التجويف، وأعدت اللوحة إلى وضعها الأصلي. كان الخوف وقوداً لشجاعتي هذه المرة؛ فالمخاطرة أصبحت واقعاً ولا مجال للرجوع.

خرجت من المكتب بخطى غير مسموعة، وأغلقت الباب. في الممر، كانت السكرتيرة قد وصلت للتو.

كان عليّ أن أكون مقنعة، فليس هناك مجال للشك. اقتربت منها بخطوات واثقة، ووضعت المغلف أمامها بنبرة عملية وجافة، مدركةً أن أفضل وسيلة للتمويه هي الصدق الجزئي:

"صباح الخير.

هذا المغلف أعطاني إياه رجل على البوابة قبل دقائق، وألحَّ عليَّ بشدة أن يسلم للدكتور عاصم يداً بيد فور وصوله، وأكد أنه يحمل ملفات استكمال لقرار لجنة المنح، ولا يحق لأحد غيره فتحه.

لا أريد أن أتحمل مسؤولية تأخيره، وأنا لدي محاضرة عاجلة لا تحتمل التأجيل، هل يمكنكِ القيام بهذا المعروف؟

كانت نبرتي الرسمية وقصة قرار لجنة المنح كفيلة بإنهاء أي فضول لدى الموظفة. وقبل أن تفتح فمها بسؤال آخر، كانت خطاي قد تلاشت في الممر، متجهةً نحو المبنى الجنوبي؛ قاعة المطالعة الكبرى، حيث سأبدأ في محو آثار وجودي، بانتظار العاصفة التي ستقتلع عروشهم.

☆_____الراوية_____☆

توجّهت آسيا مباشرة نحو المبنى الجنوبي حيث تقبع قاعة المطالعة الكبرى للمكتبة المركزية؛ المكان الأكثر اتساعاً والأقل ضجيجاً في هذا الوقت من الصباح.

كانت القاعة تمتاز بسقفها الشاهق المدعم بأعمدة من الرخام الأبيض، وتحيط بها نوافذ زجاجية عملاقة تمتد من الأرض حتى السقف، تطل مباشرة على الحدائق الخلفية والممشى الرئيسي المؤدي لرئاسة الجامعة، حيث كان الضباب قد بدأ يتلاشى تدريجياً ليترك خلفه ندىً بارداً فوق العشب.

اختارت آسيا المقعد الأبعد في الزاوية الشمالية للقاعة، وهو مقعد يمنحها زاوية رؤية كاملة ومشرفة على الباب الرئيسي وممرات الدخول دون أن تكون هي تحت مجهر العيون.

سحبت مجلداً ضخماً في الأدب الأندلسي والمقارن وفتحته أمامها كستار تمويهي، بينما كان عقلها التحليلي يراقب عقارب الساعة وحركة الممر الخارجي عبر انعكاس الزجاج.

في عمق وعيها الكامن، كانت سولارا قد استسلمت تماماً لهذا الجمود الرمادي؛ فالهلع الخانق الذي كان يهدد بوقف جهازها العصبي تراجع أمام عظمة وحرفية المناورة التي تديرها آسيا في الواقع...

أدركت سولارا من مخبئها السيكولوجي أن البرود لم يكن إلغاءً للإنسانية، بل كان إعادة توجيه للطاقة لحمايتها وحماية حقها .

كانت الدقائق تمر ثقيلة كأنها دهور من الرصاص المذاب.

وفي تمام الساعة العاشرة وخمس دقائق، رأت آسيا عبر انعكاس النافذة حركة غير طبيعية عند مدخل المكتبة.

دخل الدكتور عاصم بهو القاعة مسرعاً بخطى متعثرة ووثبات لاهثة لا تليق بوقاره الأكاديمي المزعوم. كان وجهه خالياً تماماً من الدماء، أصفر كالتبر المتآكل، وعيناه تدوران بجنون واضطراب في محيط القاعة باحثتين عن قناع وجسد سولارا...

كان يقبض بيده اليمنى على المغلف الأبيض الصغير الذي بدا مجعداً بفعل تشنج أصابعه المرتجفة.

أغلقت آسيا مجلد الأدب المقارن ببطء متعمد، مسببة صوتاً خفيفاً تناهى في سكون القاعة إلى مسامع عاصم الذي التفت نحو مصدر الصوت ولمحها أخيراً.

تقدم نحو طاولتها بخطى متسارعة، كغريق يرى طوق نجاة مصنوع من الشوك. وقف أمامها، وجسده الضخم يهتز من فرط القهر والذعر المكتوم.

انحنى بجسده نحوها وشبك أصابعه العشرة على حافة الطاولة الخشبية ليثبت نفسه، وخرج صوته فحيحاً متهدجاً، مكسوراً بالكامل وعاجزاً عن الصراخ:

"أنتِ.. من أين لكِ بهذا المغلف؟

ماذا تريدين بالضبط يا سولارا؟"

نظرت إليه آسيا بعينيها الرماديتين الساكنتين اللتين ختلتا من أي بريق للتشفي أو النصر الصبياني؛ كانت نظرتها مجرد تدقيق في ملامح مهزوم. قالت بنبرة خفيضة، حاسمة وباردة كشفرة الجراح:

"ما بك، يا دكتور لقد جاء رجل واعطاني إياه وطلب مني أن أسلمه لك....

أنا لا أفهم ماذا تريد من وراء هذا السؤال ، لذلك دعني وشئنني ، لا علاقة لي بما في ذلك المغلف" .

الفصل الرابع:

"لا تصدق صلابة الأقنعة؛ فخلف كل وجه جليدي، إنسان ضعيف يرتجف في عتمته الخاصة".

كان الطريق العائد إلى الشقة القديمة في ضواحي المدينة يبدو لـ آسيا كشريط سينمائي باهت يعرض بالسرعة البطيئة.

الضباب الذي انقشع جزئياً عن ساحات الجامعة ترك خلفه رطوبة خانقة التفت حول البنايات الحجرية المتآكلة.

حين وضعت مفتاح البيت في القفل، شعرت بنوع من المقاومة الفيزيائية داخل جسدها؛ كان وعي سولارا القابع في الأعماق يضغط بكل قوته للظهور مجدداً، مستغلاً ابتعاد الخطر المباشر لعاصم وانتهاء جولة المواجهة في المكتبة.

ما إن انفتح الباب الخشبي الثقيل وصدمتها رائحة الهيل المغلي ومصل الدواء الراكد، حتى تهاوت الدفاعات الرخامية لآسيا دفعة واحدة، لتجد سولارا نفسها واقفة في ردهة بيتها، مثقلة بوعيها الإنساني الهش وكل ذعورها المؤجل.

سقطت الحقيبة الجلدية من يدها لتستقر على البلاط البارد بصوت مكتوم. تهاوت سولارا على ركبتيها بجانب الباب، وأسندت رأسها إلى الحائط المقشر، بينما بدأت أنفاسها تتلاحق في نوبة هلع متأخرة.

كان جسدها يرتعش كغصن في مهب الريح، ودموعها المكبوتة طوال الساعات الماضية انهمرت بغزارة لتغسل قناع البرود الذي استعارت به قوة آسيا.

شعرت بشرخ حاد في هويتها؛ من تكون تلك الفتاة التي دخلت مكتب رئيس القسم، وفتحت الخزائن السرية، وهددت أكاديمياً ذا نفوذ بالاضطهاد والسجن؟

هل كانت هي حقاً، أم أن هناك مساً من الجنون يتبلور في عقلها ليحميها من الواقع؟

جاء الصوت واهناً، متهدجاً، ومحملاً بسعال جاف من خلف الستار المخملي الفاصل للصالة.

سولارا؟...

استجمعت سولارا بقايا قوتها، ومسحت دموعها بكم معطفها بسرعة ارتدادية.

أخذت شهيقاً عميقاً محاولة طرد حشرجة البكاء من حنجرتها، وقامت متثاقلة الخطى لتلج إلى حيث يرقد والدها.

كان والدها على سريره الخشبي، تحيط به أغطية صوفية ثقيلة عاجزة عن طرد البرد المزمن من جسده النحيل. وجهه المحفور بتجاعيد الصبر والشقاء كان يبدو اليوم أكثر شحوباً، وعيناه الغائرتان التفتتا نحوها بنظرة تحمل كل حنان الآباء وقلقهم المكتوم.

قالتها وهي تنحني لتقبل جبهته الباردة،

"نعم يا أبي، أنا هنا،".

مستشعرة رائحة الصوف والتبغ القديم التي تفوح منه:

ـ"سولارا.. هل لا يزال العالم في الخارج يصر على الدوران بنفس السرعة".

ابتسمت سولارا وهي تتجه نحوه، لتجد والدها غارقاً في أكوام من الأوراق، جسده نحيل، لكن عينيه كانتا تلمعان ببريق غريب انحنت لتلامس يده الباردة، فأكمل هو دون أن يرفع بصره عن كتابه:

ـ "خبريني، هل رأيتِ اليوم لوناً في الجامعة لم يسبق لي أن رأيته؟

شيءٌ لا يمكن للمنطق أن يفسره؟"

نظرت إليه، فهمست بهدوء:

ـ"رأيت طالباً يقرأ كتاباً وهو يمشي، صدم بشجرة، لكنه لم يتوقف عن القراءة. ربما كان يبحث عن شيءٍ في السطور يغنيه عن رؤية الطريق."

ضحك والدها ضحكة قصيرة، ثم نظر إليها بعمق:

ـ "أنتِ تشبهين ذلك الطالب، يا صغيرتي.

دائماً ما تصدمين بأشياء في حياتك، لكنكِ لا تتوقفين عن قراءة العالم.

أخبريني، هل وجدتي نفسكِ في الجامعة؟

استندت سولارا إلى إطار الباب، وتأملت ملامح وجهه التي رسم المرض عليها خرائط من التعب والوقار، وقالت:

ـ"وجدت ذاتي يا أبي لكن أصبح أثقل، أصبحت أحمل أشياءً لم أعد قادرة على حملها بمفردي".

رد والدها وهو يغلق الكتاب بإشارة من يده: "الأشياء الثقيلة هي وحدها التي تمنعنا من الطيران بعيداً، أما الآن ياصغيرتي اذهبي وألقب حمل هذا اليوم عنكِ".

انسحبت سولارا إلى غرفتها الصغيرة بعد أن نام والدها تحت تأثير المسكنات.

أغلقت الباب بالمزلاج، كانت المرآة في الغرفة مكسورة عند الزاوية، شقٌّ طوليّ يقسم وجه سولارا إلى نصفين. وقفت أمامها، تلمس الزجاج البارد،

وفجأة..

لم تعد ترى نفسها، بل رأت آسيا تتجسد في الانعكاس، ببرودها القاتل ونظراتها التي لا تعرف الرحمة.

آسيا.. ذلك المسخ البارد الذي يسكن جسدي ويتكلم بلساني:

ـ من أعطاكِ الحق لتخوضي هذه الحرب الانتحارية؟

أنتِ تلعبين بروح أبي، وبمستقبلي الأكاديمي وبأعصابي.

عاصم ليس بيدقاً في لعبة شطرنج تافهة، إنه رجل يملك علاقات تمتد إلى رئاسة الجامعة وما وراءها.

نعم، نجحتِ في إرعابه اليوم بالمستندات القديمة، لكن ماذا لو قرر حرق الرقعة بأكملها؟

ماذا لو تخلص من رغد ومنّا معاً في ليلة مظلمة؟

أنا لستُ بطلة في رواية سوداوية تكتبينها بدمي، أنا مجرد فتاة عشرينية تريد أن يعيش والدها بسلام، وتريد الحصول على شهادتها دون أن تضطر للمشي فوق الجثث والملفات العفنة.

أعيدي لي عقلي، وكفي عن تحويلي إلى وحش رخامي لا يرمش.

بدأت آسيا تتحدث من خلف الزجاج، وصوتها كان يتردد داخل جمجمة سولارا، لا في الغرفة:

-"انظري إليكِ.. ترتجفين من مجرد فكرة المواجهة".

أنتِ تظنين أنكِ تحمين نفسكِ بالصمت، بينما أنتِ في الحقيقة تحفرين قبركِ بيدكِ."

بدأت سولارا تبكي:

"أنا لا أريد أن أكون أنتِ.

أنا لا أريد هذا العنف، هذا السواد.. أريد فقط أن أعيش بسلام، أن أكون كما كنت قبل كل هذا.

فجأة، تحول انعكاس آسيا إلى حالة من الانكسار الموحش، وبدأت صوت آسيا يصرخ داخل عقلها تعلوا مصحوبة بنبرة اهتزاز في الكلمات...

وبدأت تبكي هي الأخرى، لكن دموعها لم تكن تشبه دموع سولارا؛ كانت دموعاً حارقة، غاضبة. صرخت آسيا، والزجاج اهتز تحت ضغط صرختها:

"سلام؟ أي سلام تتحدثين عنه يا غبية؟

العالم لا يمنح السلام للضعفاء، هو ينتزع أرواحهم!

أنا لستُ كياناً منفصلاً عنكِ، أنا الجزء الذي اضطر لأن يولد من رحم ألمكِ، من صرخاتك وبكاءك الدائم في هذه الغرفة كل ليلة أنا الجزء الذي سئم من تقبلكِ للظلم كأنه قدر محتوم!

أمسكت سولارا برأسها بين يديها، تصرخ:

"أنتِ دمرتِ حياتي!...

بفعلكِ هذا، جعلتِ الناس يرونني وحشاً!"

ردت آسيا، وصوتها يمتزج بنشيج سولارا:

"بل أنا الوحيدة التي أبقتكِ حية! أنا الخلل الذي يصلح خطأكِ في التكوين. أنا سأنتقم، ليس لأنني أحب الانتقام، بل لأنني سئمتُ من رؤيتكِ تنحنين لكل من هبّ ودبّ.

إذا كنتِ لا تملكين القوة لتكوني سيفاً، فسأكون أنا السيف، حتى لو اضطررتُ لتمزيق يدكِ التي تمسكني!"

بدأت سولارا تضرب الزجاج بيدها، والدم بدأ يسيل، لكن الألم لم يكن حقيقياً، كان تداخلاً في الإحساس بينهما.

أرجوكِ.. توقفي.. أريد أن أكون أنا.

نظرت آسيا إلى انعكاسهما معاً بنظرة مليئة بالشفقة والاحتقار:

"أنتِ لا تفهمين.. لا يوجد أنا وأنتِ.

هناك فقط نحن.. نحن الذين كُسرنا لدرجة أننا لم نعد نستطيع الالتئام.

أنا لستُ شيطانكِ، التي تخافين ظهوره أنا مرآتكِ التي تجرؤ على قول الحقيقة."

سقطت سولارا على الأرض، والزجاج المكسور يحيط بها، لم تعد تعرف أين تبدأ سولارا وأين تنتهي آسيا. كان الانهيار كاملاً، حيث أدركت أن التخلص من آسيا يعني التخلص من الجزء الوحيد الذي يمنحها القوة للبقاء في هذا العالم الظالم.

☆_____الراوية _____☆

مع حلول المساء، غمرت العتمة أزقة المدينة، وازداد البرد تكثفاً ليتحول إلى رذاذ مطر خفيف يضرب زجاج النافذة بانتظام رتيب كدقّات بندول الساعة.

كانت آسيا لا تزال مستيقظة، تجلس تحت ضوء المصباح المكتبي الضئيل، ومستندات عام ٢٠٢١ المصورة على هاتفها مفتوحة أمامها كخارطة حرب جنائية.

لم تكن تكتفي بالانتظار؛ فالانتظار في عقيدة الشطرنج الاستراتيجية يمنح الخصم فرصة لإعادة تنظيم صفوفه أو القيام بنقلة ارتدادية غير متوقعة.

أخرجت هاتفها، وبدأت بصياغة رسالة بريدية إلكترونية مشفرة، مستخدمة حساباً وهمياً غير قابل للتتبع استحدثته عبر شبكة جامعة قديمة معطلة.

الرسالة لم تكن موجهة لعاصم هذه المرة، بل كانت موجهة مباشرة إلى البريد الشخصي والمحمي للمحقق صلاح، وضمنت في المرفقات ثلاث صفحات فقط من الملف

الأصفر السري الصفحات التي تحتوي على التواقيع الحية لعاصم ونائب رئيس الجامعة للشؤون المالية لعام ٢٠٢١، مع إخفاء باقي الأوراق.

كتبت في نص الرسالة بنبرة جافة لا تحمل اسماً:

"السيد المحقق صلاح.. الشيفرة التي بين يديك في الورقة الصغيرة لم تكن شعراً، بل كانت مفتاحاً للأرشيف السفلي.

الصفحات المرفقة هي جزء بسيط من ملف الاختلاس المالي الضخم الذي تسبب في اختفاء الطالبة رغد حين حاولت كشفه.

النسخة الرقمية الكاملة والملف الأصلي مؤمنان في مكان لا تصل إليه أيدي الفساد داخل الجامعة.

غداً في تمام الساعة التاسعة صباحاً، ستجتمع لجنة المنح الأكاديمية لإصدار قرارات استثنائية. حضورك الشخصي أو تواجد دورياتك المحيطة بمبنى الإدارة سيكون النقلة الكفيلة بمنع حرق الأدلة وحماية من تبقى من الشهود على قيد الحياة.

تتبع الحصان، فإنه يوشك على مغادرة الرقعة

ضغطت على زر الإرسال، وراقبت شريط التحميل حتى اختفى معلناً وصول الرسالة إلى وجهتها الجنائية.

التفتت بعد ذلك نحو المخطوطة القديمة "ترانيم الظل الراحل" المستقرة على زاوية الطاولة.

مدت يدها وتحسست غلافها الجلدي الخشن؛، ثم تذكرت ما قرأته في المرة سابقة عن وجود كاتب انتحر بسبب هذا النظام ...

شعرت برابط سري يربطها بالكاتب الذي انتحر قبل ستة أعوام في ذات القبو.

لقد ترك دمه على الورق ليوجه ضربته من وراء القبر، ورغد التقطت الخيط وغابت في ظروف غامضة، والآن جاء الدور عليها—على هذا الجسد المشترك— لتنهي اللعبة وتغلق الحسابات المعلقة منذ عقود.

نظرت إلى المرآة المعلقة أمامها، ورأت وجهها الساكن، وعينيها الرماديتين اللتين لا تعكسان أي بريق عاطفي.

تمتمت بصوت منخفض تردد في أرجاء الغرفة المظلمة:

"غداً صباحاً.. إما الكشف الشامل وإما النجاة الكاملة.

لم يعد هناك مكان للتراجع في هذه الرقعة السوداء."

انتصف الليل، واستحالت أجواء الشقة القديمة إلى ما يشبه زنزانة انتظار يتردد في أرجائها صدى الصمت القاتل، الممتزج بوقع حبات المطر التي أخذت تنهمر بغزارة تضرب القرميد المتآكل للأسقف الخارجية.

كانت آسيا لا تزال متسمرة في جلستها فوق المقعد الخشبي، وعيناها الرماديتان لم تطرفا أمام وهج شاشة الهاتف الضئيل.

في هذه اللحظات المتأخرة، حيث تنام المدينة بكامل صخبها ومآسيها، كانت الحسابات السيكولوجية داخل عقلها الباطن تجري بأعلى دقة ميكانيكية ممكنة؛ فكل

احتمال، مهما كان ضئيلاً، يجب أن يوضع في الحسبان، وكل نقلة مضادة قد يقدم عليها عاصم والرؤوس الكبيرة في رئاسة الجامعة يجب أن تقابل بحائط صد دفاعي مسبق الصنع.

شعرت آسيا بنبضات سولارا تتحرك في العمق مجدداً؛ لم يكن حراكاً تدميرياً أو نوبة هلع كالسابق، بل كان نوعاً من الاستسلام الواعي والتساؤل الصامت الشبيه بالهمس.

سألت سولارا من مكمنها النفسي المظلم.

هل تثقين حقاً بالمحقق صلاح؟....

ماذا لو كان جزءاً من المنظومة ذاتها؟

ماذا لو كان الحيتان قد اشتروا صمته منذ سنوات طويلة كما اشتروا صمت عاصم بكرسي العمادة؟

التفتت آسيا نحو النافذة، وراقبت انعكاس وجهها على الزجاج المبلل بالمطر، متمتمة بصوت منخفض لم يتجاوز حدود شفتيها:

"المحقق صلاح لا يحتاج إلى شراء، يا سولارا ...

إن لديه ما هو أثمن من المال؛ لديه الطموح المهني والشهوة الجنائية لإسقاط الرؤوس الكبيرة التي ستصنع منه بطلاً في الصحافة الرسمية.

أنا لا أثق بضميره الإنساني، بل أثق بغريزته كصياد رأى طريدة ضخمة تقترب من فخه. الفاسدون لا يثقون ببعضهم البعض عند اقتراب حبل المشنقة، وهذه هي الثغرة التي نلعب عليها".

قامت من مكانها بخطى رتيبة وموزونة، وتوجهت نحو خزانة حيث تحتفظ سولارا بملابسها .

سحبت معطفاً صوفياً داكناً يميل إلى السواد، ووشاحاً قطنياً عريضاً صممته ليتناسب مع الأجواء الباردة والممطرة المتوقعة في الصباح الباكر.

أصلحت وضع الأوراق المتبقية في حقيبتها، وتأكدت للمرة الألف من شحن بطارية هاتفها بالكامل، فالشاشة الصغيرة في جيبها لم تعد مجرد أداة تواصل، بل غدت صاعق التفجير الرقمي الذي يحمل وثائق الإدانة لعام ٢٠٢١.

تسللت بعد ذلك إلى الصالة بخطوات قطة، ووقفت عند رأس سرير والدها أبو أحمد.

انحنت برفق لتتفقد أنبوب المحلول الطبي الموصول بمعصمه الهزيل؛ كان السائل يتقطر ببطء رتيب، ووجه العجوز يبدو وادعاً ومستسلماً للنوم، بعيداً عن صراعات الرقعة السوداء.

دثرته بالغطاء الصوفي جيداً، وشعرت بلمحة خاطفة من عاطفة سولارا الدافئة تخترق درعها الرخامي لثوانٍ معدودة، قبل أن تعيد إحكام قبضتها الحديدية على مشاعرها.

أدركت حينها أنها لا تستطيع أن تكون مسخ قوي دائما بلا مشاعر الخوف والحزن على من نحب، هي نوع من أنواع القوة لكن ليس على حساب الكرامة....

نظرت إلى الساعة التي باتت تشير إلى الثالثة صباحاً، متمتمه:

"أربع ساعات تفصلنا عن المواجهة الأخيرة.. أربع خطوات فقط لكشف الملك".

☆ مصحة السلام النفسية ☆

لم تكن "مصحة السلام النفسية "مجرد مبنى، بل كانت مقبرة للأحياء، حيث يتلاشى الزمن في ممرات طويلة تفوح منها رائحة اليأس الممزوجة بمطهرات كيميائية لاذعة.

في غرفتها التي تشبه القبر، كانت رغد تتأمل انعكاس وجهها الشاحب على زجاج النافذة المشطب. لم تعد تلك الفتاة التي كانت تحلم بالحياة؛ فقد سرقوا منها بريق عينيها، واستبدلوه بذهول دائم تسببه المهدئات التي يصر الدكتور كامل على تجرعها كجزء من بروتوكول العلاج.

كان الدكتور كامل يقف أمام باب غرفتها، يطرق الزجاج بنظرة فاحصة لا تحمل ذرة تعاطف. قالها بصوت رتيب، وكأنه يتحدث إلى آلة لا إلى إنسانة تعاني الظلم:

ـ رغد، أنتِ تبدين أفضل اليوم، لقد استجبتِ للجرعة بشكل جد.

رغد لم تجبه، كانت عيناها تحدقان في الفراغ، بينما عقلها يرفض الخضوع. كانت رغد تعيش في عالمها الخاص، تتخيل صديقتها سولارا وهي تدور في قبو الأرشيف القديم، كانت رغد تشعر بوجود سولارا من خلال الرابط الخفي بينهما، تهمس في أعماق روحها:

ـ "سولارا، أرجوكِ، ابحثي عن ترانيم من ظل الراحة، أرجوكِ، أخرجيني من هنا".

فجأة، انفتح الباب، ودخلت الممرضة حاملة وعاءً بلاستيكياً به ثلاث حبات صغيرة.

-"حان وقت الدواء، يا رغد".

نظرت رغد إلى الحبات بمرارة؛ كانت تعرف أنها ستأخذها، ليس لأنها تحتاجها، بل لأن الرفض يعني المزيد من العقاب.

لكنها، بينما كانت تضع الحبات في فمها، كانت تبتلع معها وعداً بالصمود.

كانت تعلم أن سولارا، ربما تقترب من اكتشاف الحقيقة، وأن "ترانيم من ظل الراحل"، ستكون اللحن الذي سيطرد ظلام هذه المصحة ويفضح زيف الدكتور كامل وألاعيب أقاربها.

كانت ساعات الفجر تزحف ببطء، وفي الصمت المطبق، كانت رغد تغمض عينيها، متمسكة بخيط رفيع من الأمل، تنتظر اللحظة التي سيُكسر فيها صمت المصحة، وتفتح الأبواب الموصدة لتخرج منها، ليس كمريضة تائهة، بل كناجية تستعد لاسترداد حياتها التي سُلب منها قسرا..

في السابعة والنصف صباحاً، انشقت السماء عن وضح نهار شاحب مبلل، غسلته أمطار الليل دون أن تطهر رداءه الرمادي الكثيف. كانت ساحة الجامعة الرئيسية تبدو اليوم كساحة إعدام تاريخية؛ المياه الراكدة في التجاويف الإسمنتية تعكس الصور المقلوبة للمباني الضخمة، والطلبة يتحركون بمظلاتهم الداكنة كأشباح هاربة من وطأة البرد.

ترجلت آسيا من الحافلة بخطى حديدية لا تهتز، يلتف الوشاح الداكن حول عنقها، وتستقر يدها اليمنى داخل جيب معطفها، قابضة بقوة مستقرة على هاتفها المخزن بالوثائق.

تجاوزت البوابة الرئيسية دون أن تلتفت يميناً أو يساراً، متوجهة مباشرة نحو مبنى رئاسة الجامعة القلعة العاجية ذات الواجهة الزجاجية العملاقة التي تتربع فوق التلة الشمالية للكلية، حيث يعقد مجلس الأمناء ولجنة المنح اجتماعهم السري في تمام الساعة الثامنة.

عند صعودها الدرج الرخامي الخارجي للمبنى، لمحت من بعيد سيارة مدنية داكنة تقف في زاوية معزولة تحت أشجار السرو؛ لم تكن سيارة شرطة رسمية، لكن آسيا لمحت عبر زجاجها الأمامي الممسوح وجه المحقق صلاح وهو يراقب المدخل بتركيز حاد، ممسكاً بيده دفتراً جلدياً أسود.

التقت نظراتهما لثانية واحدة عبر المدى البارد، ولم تمنحه آسيا أي إشارة أو إيماءة، بل أكملت صعودها برأس مرفوع وكبرياء رخامي لا يلين.

ولجت إلى بهو المبنى الرئيسي الفخم، حيث كانت الأرضيات مرصوفة بجرانيت مصقول يعكس إضاءة الثريات الكريستالية الضخمة المعلقة في السقف الشاهق.

كان الجو مشحوناً بصمت مهيب ورسمية خانقة تختلف تماماً عن فوضى مباني الكليات الأخرى.

عند نهاية الممر المؤدي إلى قاعة الاجتماعات الكبرى، رأت الدكتور عاصم يقف بجانب نائب رئيس الجامعة للشؤون المالية؛ كانا يتبادلان الهمسات السريعة المتشنجة، وأوراق ملف المنح تتأرجح في كف عاصم المرتعشة.

ما إن وقعت عينا عاصم على قناع سولارا الواثق وهي تقترب، حتى تجمدت الكلمات في حلقه، وشحب وجهه مستحيلاً إلى لون التراب، بينما التفت نائب الرئيس نحوها بنظرة حادة حملت مزيجاً من الاحتقار والوجل المكتوم.

وقفت آسيا أمام الاثنين على بعد خطوتين، واضعة حقيبتها الجلدية تحت ذراعها بثبات تام، ولم تمنحهما فرصة البدء بالحديث أو إظهار السيطرة الأكاديمية المصطنعة.

نظرت مباشرة في عيني نائب الرئيس المستتر خلف هيبته الرسمية، وقالت بنبرة فصحى جزلة، منخفضة وصارمة كحد السيف:

"صباح الخير يا سادة. الساعة الآن تشير إلى الثامنة إلا عشر دقائق، ولجنتكم الموقرة على وشك الدخول لإقرار مصائر الطلبة وتوقيع الكشوفات.

أظن أني سمعت بأن المغلف الأبيض الذي وصلكم بالأمس كان واضحاً بما يكفي؛ فالنسخة الرقمية الكاملة لملف عام ٢٠٢١ تقف الآن على حافة زر الإرسال النهائي

لمديرية الأمن، والمحقق صلاح ينتظر في الأسفل ليتسلم الأصل من جوف اللوحة الزيتية إذا اختل توازن الشروط، هذا ما قاله لي أحدهم وأحببت أن أذكركم فقط".

تحرك الدكتور عاصم بحركة لا إرادية كأنه يريد التقدم نحوها لانتزاع حقيبتها، لكن نائب الرئيس ممد يده بحزم ليمسكه من ذراعه مانعاً إياه من ارتكاب حماقة تفضح الموقف في البهو المفتوح.

أخذ نائب الرئيس شهيقاً عميقاً، وحاول استعادة هدوئه الدبلوماسي الفاسد، قائلاً بصوت خفيض ومخلوق بالتوتر: "الملف المالي الاستثنائي للطالبة سولارا جاهز وموقع بالكامل يا آنسة..

تم تجديد المنحة التعليمية والطبية لأقصى مدة ممكنة بقرار من الإدارة العليا، لكن لا تفرحي كثيراً ، فغيرك ظنوا أنهم أذكياء لكنهم فشلوا.

أما الان فنحن نريد ضمانات حقيقية بأن تلك الأوراق القديمة لن تخرج من حدود هذا اليوم".

ابتسمت آسيا ابتسامتها الرمادية الباردة، تلك الابتسامة الساخرة التي لا تعكس فرحاً بل تفرض شروط المنتصر على الرقعة، وقالت وهي تلتفت نحو باب القاعة:

"الضمان الوحيد في أعراف الشطرنج، يا سيادة النائب، هو بقاء الملك تحت التهديد الدائم.

المنحة ستُسلم لي الآن يداً بيد بتقرير رسمي مختوم، والمخطوطة القديمة ستبقى في مخبئها الآمن.. خطواتكم القادمة هي ما سيحدد إن كان هذا الصباح هو صباح النجاة لكم، أم بداية السقوط المدوي للقلعة بأكملها"....

الفصل الخامس :

أقوى القطع قد تسقط في سبيل حماية ما هو أثمن؛ والتضحية الكبرى هي التي تسبق النصر الحاسم.

لم تكن قاعة المحاضرات المركزية في كلية الآداب مجرد مساحة إسمنتية تتسع لمئتي طالب، بل كانت لآسيا بمثابة مسرح تشريحي بارد، تراقب فيه من مقعدها في الصف الأخير تهاوي المنظومة التي ظلت لسنوات طويلة تمارس سطوتها المطلقة على العقول.

كانت أشعة الشمس الضحية لظهيرة تشرين تتسلل عبر النوافذ الزجاجية العالية، لتكشف ذرات الغبار المعلقة في الهواء، وتسلط ضوءاً باهتاً على منصة الخطابة الخشبية التي اعتلاها اليوم أستاذ بديل للدكتور عاصم.

كان عاصم قد غاب عن الأنظار منذ مواجهة المكتبة، وانتشرت في الأروقة شائعات مكتومة عن وعكة صحية طارئة ألمّت به، لكن آسيا كانت تعلم، ببرودها السيكولوجي الصارم، أن الوعكة الحقيقية هي الرعب الذي ينهش أحشاءه خوفاً من الضغط على زر الإرسال الرقمي.

كانت سولارا في الداخل تراقب المشهد بنوع من الذهول الهادئ، لم يعد الخوف يشل أطرافها، بل تحول إلى ترقب ناضج.

شعرت بجسدها مستقراً، وقبضتها على قلم الحبر ثابته لا تهتز. كانت الأوراق الموزعة أمامها تحمل عناوين أبحاث التخرج، وحين وقعت عيناها على الخانة المخصصة لاسم المشرف، رأت خطاً أحمر عريضاً قد شُطب به اسم الدكتور عاصم واستُبدل باسم رئيس القسم ذاته، في إشارة إدارية واضحة إلى أن النقلة التي لعبتها بالأمس خلف اللوحة الزيتية قد بدأت تؤتي ثمارها في عزل البيدق وتحجيم حركته قبل السقوط النهائي.

التفتت إليها زميلتها الجالسة في المقعد المجاور، وهمست بنبرة مشحونة بالفضول:

سولارا ..

هل سمعتِ ما يقال في الكلية؟

يقولون إن مكتب الدكتور عاصم قد خضع لتفتيش داخلي مغلق من قبل إدارة الجامعة ومحقق مدني في ساعة متأخرة من مساء الأمس. وقال بعضهم أنهم وجدوا وثائق تدل على فساده والأغرب من ذلك، أن رئيس القسم طلب سحب جميع ملفات المنح الخاصة بالسنوات الماضية لإعادة تدقيقها، أي أن المحقق الذي جاء إلى الجامعة قام باعتقال دكتور عاصم بتهمة الفساد وتزوير ..

هل تظنين أن للأمر علاقة باختفاء رغد؟

لم ينحرف قناع آسيا الرمادي شعرة واحدة؛ نظرت إلى زميلتها بعينين ساكنتين، وأجابت بصوت منخفض، رزين ومبرأ من أي انفعال:

ربما هي مجرد دورة فساد كانت ستنكشف يوماً ما، أما عن رغد.. فلا أعلم...

☆_____آسيا_____☆

لكن في أعماقي، كانت الصور تتزاحم؛ رأيتُ في مخيلتي ما حدث قبل ساعات.

كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل، حين اقتحمت قوة من المحققين المدنيين ممر القسم الهادئ. لم يكن عاصم هناك، لكن المحقق صلاح – الذي أرسلتُ إليه النسخة الرقمية – كان يقف بثبات أمام باب المكتب. طرقة واحدة قوية، تلتها صرخة الضباط:

شرطة، لا يتحرك أحد!...

تحطمت هيبة البلوط الداكن في ثوانٍ. رأيتُ في خيالي المحقق يزيح اللوحة الزيتية للخيول البرية، يده تقتلع الصندوق المعدني من تجويفه.

لم يكتفوا بالوثائق، بل كانت الوجوه في الممر شاحبة، مذهولة، وهم يرون رئيس القسم يخرج مقيداً، يجر قدميه خلف المحققين، ووجهه الذي كان يقطر ترفاً قد تحول إلى قناعٍ رمادي من الذل.

كان المشهد يتكرر في رأسي كفيلم سينمائي بطيء؛ اللحظة التي سقطت فيها أوراق المنح على الأرض، واللحظة التي قرأ فيها المحقق اسم عاصم بصوتٍ جهوريٍ أرعب كل من كان في المكان.

استعدتُ توازني سريعاً حين لمستُ يد زميلتي على كتفي وهي تقول: أتمنى فقط أن نكون بخير بعد كل هذا.

نظرتُ إليها، وابتسامة خفيفة ومبهمة ارتسمت على زاوية فمي، ثم أضفتُ بهدوء: لا تشغلي بالكِ بالشائعات، وراقبي فقط كيف سيعيد التاريخ كتابة النصوص.

كانت الروائح تفوح بنسيج من الأرض الرطبة وأوراق الشجر المتساقطة. لم يكن تحركها عشوائياً، بل كانت تستجيب لرسالة ورقية قصيرة وغير موقعة وُجدت بين طيات دفترها، تطلب منها التواجد عند المقعد الخشبي المعزول محاذاة سور الجامعة القديم.

حين وصلت، وجدت شخصاً يقف بظهره نحوها، يرتدي معطفاً جلدياً فاخرًا ويقذف بأطراف أصابعه قطعاً من الخبز اليابس للحمام الراكد:

كان هذا الرجل هو االدكتور مروان، نائب رئيس الجامعة للشؤون المالية والإدارية—— الرأس الكبير الثاني الذي ورد اسمه بوضوح في وثائق اختلاس عام ٢٠٢١ ..

والرجل الذي وقع بيده على صك النجاة لسولارا في بهو الرئاسة صباح الصباح.

التفت مروان نحوها ببطء، وكانت ملامحه الخمسينية تحمل مزيجاً من الكبرياء الطبقي المهزوم والحذر الثعلبي.

لم يتحدث فوراً، بل تأمل برود الفتاة التي تقف أمامه بحقيبتها الجلدية وكأنها تملك الصلاحية القانونية لمحاكمته.

قال بصوت خفيض، حاد ومخلوق بالرسمية:

آنسة سولار.. أو أياً كان الوعي الذي يدير هذه اللعبة الذكية. لقد نفذنا الجزء الخاص بنا من الاتفاق؛ منحتكِ أصبحت محصنة، ووالدكِ يتلقى علاجه الآن في أرقى الأجنحة الطبية.

لكن اللعب على حبلين مع الأمن لا يعكس ذكاءً إستراتيجياً. المحقق صلاح لا يزال يطوف حول مبنى الإدارة، وعاصم يوشك على الانهيار وتقديم اعترافات قد تطال الجميع.

نريد النسخة الرقمية الأصلية، ونريدها الآن.

خطت آسيا خطوة واحدة إلى الأمام، وثبتت نظرتها الرمادية الصارمة في عمق عينيه، وارتسمت على شفتيها ذات الابتسامة الساخرة التي لا تعكس خوفاً بل تفرض واقعاً جديداً.

وقفت بثبات رخامي، وقالت بنبرة فصحى جزلة:

أنت تخطئ في قراءة الرقعة يا سيادة النائب.

المحقق صلاح لم يأتي بطلب مني اليوم، بل تحركه غريزته الجنائية التي أيقظتها وثائقكم العفنة لعام ٢٠٢١. النسخة الرقمية الكاملة ليست بضاعة للبيع أو المقايضة، بل هي صمام الأمان الوحيد الذي يمنعكم من التفكير في الغدر بي أو بوالدي بعد أن ينقشع غبار هذه القضية."

اقترب مروان منها خطوة، وانخفضت نبرته ليحل محلها تهديد مبطن: "أنتِ تعاندين ذئاباً يملكون القدرة على محوكِ من السجل الأكاديمي والمدني بكبسة زر واحدة يا فتاة.

عاصم قد يسقط، لكن المنظومة ستبقى، حينها سوف يكون مصيركِ مثل مصير رغد ، حيث لن يعثر عليك أحد."

لم ترمش آسيا، وظلت يداها مستقرتين داخل جيب معطفها الصوفي، وأجابت ببرود قاتل:

المنظومة التي تتحدث عنها يا دكتور تقوم على الصمت المتبادل، والصمت ينهار حين يدرك أحد الأطراف أن السجن ينتظره.

إذا حاولتم محوي، فإن الخادم الرقمي المبرمج سيرسل الوثائق كاملة إلى خمس جهات رقابية وإعلامية في ذات الثانية.

عاصم ليس سوى بيدق ضحيتم به لحماية الملك، وأنا الآن أضع الملك تحت التهديد المباشر.

حافظ على هدوئك، وأقنع عاصم بالصمت وتحمل تبعات جشعة بمفرده، فذلك هو الثمن الوحيد لبقائك فوق كرسيك الفخم.

مع الاسف اللعبة لم تعد ملككم.. كش ملك."

استدارت آسيا ومشت مبتعدة بخطى واثقة ورتيبة، تاركة إياه وحيداً تحت ظلال السرو، يتجرع مرارة الهزيمة أمام قناع رخامي لا ينكسر.

حين بلغت آسيا عتبة الشقة القديمة في ضواحي المدينة، كانت خيوط شمس الظهيرة الباهتة قد بدأت بالاختراق الخجول لستائر الردهة المتهرئة.

انفتح الباب الخشبي الثقيل، واندفع دفء البيت المألوف، الممزوج برائحة شاي الميرمية المغلي والزعتر الراكد، ليعانق وجنتيها اللتين تجمدتا بفعل لسعات البرد الخريفي في ساحات الجامعة.

وضعت حقيبتها الجلدية المتهرئة فوق الطاولة الخشبية بحركة بطيئة رتيبة، وسحبت منها الملف الأزرق المخملي ذو الشعار المذهب، لتضعه بعناية فائقة بجانب علبة المصل الفارغة؛ كان هذا الورق هو صك النجاة والدليل المادي الملموس على انتهاء معركة كسر العظم الأكاديمية.

في تلك اللحظة بالذات، ومع ابتعاد شبح عاصم ومروان وخروجها من دائرة الخطر المباشر، شعرت بانسحاب تدريجي وناعم للوعي الصارم لآسيا..

كانت البرودة الميكانيكية في عروقها تتراجع إلى الخلف ببطء وسلاسة، مفسحة المجال لـ سولار الحقيقية لتعود وتتسلم مقاليد جهازها العصبي.

لم تسقط سولارا هذه المرة على ركبتيها باكية كما حدث في المرات السابقة، ولم تصبها نوبة هلع متأخرة تشنج أطرافها؛ بل وقفت مستقيمة القامة، وغمرتها موجة عارمة وطاغية من الراحة والسكينة العميقة التي لم تذق طعمها منذ أشهر طويلة.

توجهت نحو المرآة الصغيرة المعلقة في الردهة، ونظرت إلى انعكاس ملامحها؛ لم تعد ترى في عينيها ذلك الجمود الرخامي الموحش أو ملامح المسخ الغريب الذي استعارته للمواجهة، بل رأت وجهها هي، وعينيها اللتين عاد إليهما بريقهما الإنساني الدافئ، لكنه كان بريقاً مطعماً بصلابة جديدة ونضج مغاير اكتسبته من شريكتها الكامنة في أعماق وعيها الباطن. لقد تصالحت الضفتان، وصار الكيان واحداً لا يقبل الانكسار.

جاء الصوت واهناً ومصحوباً بسعال خفيف من خلف الستار الفاصل للصالة، لكنه كان اليوم يحمل نبرة أكثر حيوية وقوة، كأن روح والدها الشيخ قد استشعرت انجلاء الغمة وزوال الكابوس قبل أن تراه عيناه.

سولارا؟ هل عدتِ يا ابنتي؟

دلت سولارا إلى الصالة بخطى خفيفة مستقرة، ممسكة بالملف الأزرق المذهب بين كفيها بحرص يماثل حرصها على حياتها. جلست بجانبه على حافة السرير الخشبي، ودثرت قدميه الباردتين بالغطاء الصوفي، ثم فتحت الأوراق أمامه وهي تبتسم ابتسامة حقيقية صادقة انهمرت معها دموع الارتياح والانتصار.

قالتها وهي تقبل يده المرتعشة المحفورة بتجاعيد الشقاء.

نعم يا أبي، أنا هنا.. وجئتُ لك بصك الأمان والكرامة...

المنحة الدراسية تجددت بالكامل بقرار استثنائي من رئاسة الجامعة، وعلاجك ومصلك الطبي مؤمنان ومغطاة تكاليفهما بالكامل لأجل غير مسمى دون منّة أو تهديد من أحد.

لقد انتهى زمن الخوف يا أبي، وسنعيش بسلام.

اتسعت عينا الشيخ العجوز بالذهول المصحوب بالحمد الشديد، ورفع كفيه الضعيفتين نحو السماء يلهج بالدعاء والثناء لابتنته التي خاضت عواصف الكلية وحمت حماه بكبريائها وعقلها.

ضمت سولار رأس والدها إلى صدرها، واستنشقت رائحة الصوف والتبغ القديم التي تفوح منه، وشعرت في تلك اللحظة بتصالح مطلق ونهائي بين ضفتي هويتها؛ فقد أدركت أن آسيا لم تكن شراً أو تبلداً، بل كانت الدرع الفولاذي والجانب المظلم الضروري من روحها، ذلك الجانب الذي استيقظ ليخوض معارك الحياة الشرسة وينتزع الحقوق حين عجزت دموع الطفولة ونواياها الحسنة عن مواجهة الذئاب.

مع حلول المساء، غمرت العتمة أزقة المدينة، وازداد البرد تكثفاً ليتحول إلى ضباب رقيق يلتف حول شرفات البنايات الحجرية القديمة، بينما كانت الغرفة الصغيرة تنعم بدفء المصباح المكتبي المنبعث هادئاً فوق الأوراق البيضاء.

جلست سولارا أمام مكتبها الخشبي المتواضع، وسحبت الدفتر البنفسجي ذو الغلاف المخملي المتهرئ من أعماق حقيبتها، وأمسكت بقلم الحبر بثبات مستقر وخالٍ من أي رجفة أو تشنج.

لم يكن هناك صراع سيكولوجي أو اتهامات متبادلة في هذه الليلة، بل كان حواراً ختامياً مفعماً بالسلام والامتنان المشترك بين وعيين صارا كياناً واحداً متكاملاً يدير رقعة الحياة بحكمة بالغة.

فتحت صفحة بيضاء جديدة، ودونت بخطها الأنثوي الناعم والرقيق:

"إلى آسيا.. إلى ذلك الجزء الرخامي الصارم الذي سكن جسدي وحمى عقلي حين انكسرت كل دفاعاتي الإنسانية:

شكراً لأنكِ كنتِ البرود الذي جمد دموعي ليحولها إلى شفرات حادة وقاتلة في وجه الطغاة.

اليوم، وأنا أرى الملف الأزرق مستقراً على طاولتي وعاصم يتهاوى خلف جدران التحقيق، تعلمتُ منكِ أن الأدب والنصوص لست مجرد كلمات تُلقى في قاعات المحاضرات، بل هي سلاح إستراتيجي وقوة تفكيك للواقع تُعيد ترتيب الرقعة لصالح الضعفاء.

لقد انتصرنا معاً؛ أبي سينام الليلة دون أن تقض مضجعه كشوفات الدواء الفارغة، ومستقبلي الأكاديمي بات محصناً بقوة الحق والأمر الواقع الذي انتزعناه بأيدينا.

لن أطلب منكِ الغياب مجدداً، ولن أصفكِ بالمسخ؛ فأنتِ أنا، وأنا أنتِ.. سنبقي هذا الدفتر البنفسجي مفتوحاً، وسأبقى أستدعي برودكِ الرخامي كلما حاولت بيادق الفساد العبث بحدودنا أو تهديد أماننا.

تركت القلم لثوانٍ معدودة، وأغلقت عينيها مستشعرة هدوءاً نفسياً رائعاً وتناغماً غريباً يسري في عروقها..

☆_____مركز الشرطة_____☆

كانت الغرفة غارقة في صمتٍ ثقيل، صمتٌ يشبه هدوء ما قبل العاصفة، حيث الضغط الجوي في الداخل يكفي لتمزيق الرئة.

المحقق صلاح لم يعد جالساً، كان واقفاً يحيط بالطاولة كذئبٍ يطوق فريسته، بينما عاصم يجلس في المركز، ظهره مستقيم كأنه قطعة رخام باردة، لكن عروق يديه كانت تصرخ بغير ذلك؛ كانت تنتفخ بحدة، تشي ببركانٍ يغلي تحت جلدٍ يحاول التماسك.

ألقى المحقق صلاح الملف على الطاولة بقسوة، واندفع صوته حاداً كالسكين:

كفى ألعاباً يا دكتور! أنت لست أكاديمياً، أنت مهندس خراب.

النظام ليس مجرد خوارزمية، إنه مقصلة وضعتها على رقاب طالباتك.

اعترف.. هل كان كل هذا من أجل السلطة؟

من أجل نشوة أن تكون المتحكم في خيوط اللعبة؟.

هل كل هذا من أجل الحصول على تلك الأموال؟..

ضحك عاصم، كانت ضحكته هذه المرة جافة، مرعبة، تشبه احتكاك الصخر بالزجاج.

رفع رأسه ببطء، وفي عينيه لمعةٌ انكسرت فيها كل حصون الكبرياء.

"السلطة؟، الأموال هل أنت أخرق...

هل تظن أن رجلاً مثلي، يحفر في الكتب منذ عقود، يرتوي من نشوة السلطة؟

يا سيادة المحقق، أنت لا ترى إلا القشور.

أنت ترى رقعة الشطرنج، لكنك لا ترى الأصابع الخفية التي تمسك بقطعي!

اقترب صلاح منه، وضع وجهه بمحاذاة وجه عاصم، هامساً بنبرة مشحونة بالوعيد:

"إذن من؟

من الذي دفع بك إلى هذا المستنقع؟

انفجر عاصم، ليس بكلمات، بل بصرخة مكتومة هزت أركان الغرفة.

"إنهم الوحوش الذين يرتدون ربطات العنق الحريرية!

الذين يملكون أرواح الجامعات قبل مبانيها.

في اللحظة التي أطلقت فيها مشروعي، لم يأتوا لي بالتهنئة، بل أرسلوا لي تذكاراً!

أخرج عاصم من جيبه صورة، كانت قد اهترأت أطرافها من كثرة اللمس. وضعها على الطاولة بوقارٍ جنائزي.

كانت صورة لطفليه، ياسين وليلى، يضحكان في باحة مدرسة، لا يعلمان أن حياتهما كانت معلقة بخيطٍ واهٍ يملكه غرباء.

أرسلوا لي هذه الصورة مع جدولٍ دقيق لتحركاتهم، مع مواقيت خروجهم، مع توقيتات أنفاسهم. كانت الرسالة واضحة:

يا دكتور، اللعبة تغيرت، الآن أنت قطعة في رقعتنا، أو أن أطفالك سيتحولون إلى مجرد ذكرى رمادية في ملفاتنا.....

هل تسمي هذا فساداً؟...

أنا أسميه: مقايضة الروح بالبقاء!....

المحقق صالح نظر إليه، محاولاً ربط الخيوط.

لماذا لم تبلغ الشرطة؟

لماذا لم تطلب المساعدة؟

أجاب عاصم بمرارة:

الشرطة؟!..

أنت لا تفهم هؤلاء الناس.

هم موجودون في كل مكان، حتى داخل دوائر القرار التي قد تظن أنها محمية.

إذا أخبرت أحداً، كنت سأفقد أولادي قبل أن أصل إلى باب المركز.

اخترتُ أن أكون الشخص السيء، لأن الشخص السيء يمكنه الاستمرار في اللعب، بينما الشخص الطيب يموت في اليوم الأول.

أنا لا أطلب العفو أعلم أنني دمرت حياة الكثيرين، وسولارا كانت واحدة منهن، فقد كنت سبب رسوبها في بعض مواد ومشاريعها الجامعية برغم من تفوقها وأنها تستحق أفضل تقيم، لكن أنا أردت كسر عزيمتها وإرادتها ....

لكنني أريدك أن تعرف.. أنني كنت ألعب شطرنجاً بلا رماد، أحرق مستقبلي وضميري لأمنع حريقاً أكبر يلتهم براءة أطفالي.

ارتبك المحقق صلاح، تراجع خطوة إلى الوراء، مذهولاً من حجم القسوة.

تابع عاصم، وصوته يتهدج كأنما يلفظ أنفاسه الأخيرة:

هذا يعني أنك كنتُ مقتولاً حياً كل يوم.

كنت أبتز الفتيات، وأنا أرى ملامح أطفالي في وجوههن، كنت أحرق مستقبلهن لأشتري يوماً إضافياً من حياة أولادي.

هل تعرف ما معنى أن تعيش وأنت تعلم أن يديك تلطخت بالخطيئة.. فقط لكي لا تلطخ بالدم؟

ساد صمتٌ قاتل. المحقق صالح، الذي اعتاد على رؤية المجرمين المتبجحين، وجد نفسه أمام رجلٍ مكسور إلى ذرات.

عاصم لم يكن شريراً، كان بطلاً تراجيدياً غرق في وحلٍ لم يصبحه بيده.

قال عاصم وهو يغلق عينيه:

أنت لا تحقق مع مجرم يا صلاح...

أنت تحقق مع حطام إنسان، قرر أن يكون شطرنجياً بلا رماد.. لأن الرماد هو كل ما تبقى من حياته، وهو الذي سيغطي قبور أطفاله إذا توقفتُ عن اللعب.

في تلك اللحظة، لم تعد الغرفة مكاناً للتحقيق، بل أصبحت مسرحاً لدراما إنسانية لا تنتهي، حيث العدالة لم تعد أبيض وأسود، بل أصبحت مزيجاً من دماءٍ ودموع ورماد.

في صباح اليوم التالي، انقشعت سحب تشرين الثقيلة تماماً عن سماء المدينة، مفسحة المجال لأشعة شمس دافئة وذهبية لتغسل جدران مبنى كلية الآداب القديم.

كانت الخطوات التي تخطوها سولارا فوق البلاط الرخامي لساحة الجامعة الرئيسية تحمل خفة وثقة متزنة لم تعهدهما في نفسها من قبل.

الممرات الضيقة التي كانت تبدو لها طوال الفصل الدراسي كأنفاق خانقة ومظلمة تتربص بها الذئاب الأكاديمية، بددت شمس اليوم عتمتها، فبدت قاعات فسيحة ومضاءة بنور الأمان المستعاد.

مرت وهي في طريقها بمكتب الدكتور عاصم؛ كان الباب الخشبي الثقيل مغلقاً بالشمع الأحمر، واللوحة الاسمية النحاسية البراقة باتت مغبرة وفاقدة للهيبة بعد أن تلاشت سطوته وانكسر جبروته خلف جدران زنزانة التحقيق الجنائي.

توجهت بخطى هادئة وموزونة نحو التسوية السفلية للمبنى، مخرت ممرات الأرشيف القديم الذي تفوح منه رائحة الورق العتيق والتاريخ المكتوم، حتى بلغت الزاوية المعزولة حيث تقبع الخزانة الحديدية رقم (13).

سحبت صندوق الأبنوس الصغير برفق، وأخرجت مخطوطة "ترانيم الظل الراحل" المستقرة في عمقه.

نظرت إلى صفحاتها المتآكلة وحبرها البني القديم بنظرة مفعمة بالاحترام والامتنان العتيق؛ فقد كانت هذه الأوراق والشيفرات هي الجسر السري الذي عبرت فوقه بنجاح من ضفة العجز والابتزاز إلى ضفة النجاة والحرية الكاملة..

مدت يدها الطاهرة بثبات، ووضعت في الصفحة الأخيرة من المخطوطة، بجانب سطر القديم المطموس، ورقة صغيرة مطوية بعناية فائقة، كتبت فيها عبارة واحدة تداخل فيها خطها الأنثوي الناعم مع الحواف الحادة لخط آسيا:

تمت النقلة الأخيرة بنجاح.. والوزير كسب المباراة وحرر الأسرار.

أعادت المخطوطة إلى جوف الصندوق، وأغلقت باب الخزانة الحديدية، وأدارت قفلها البرونزي بضربة واحدة استقرت في مكانها، لتترك تلك الأسرار القديمة لعام ٢٠٢١ ترقد في سلام الأرشيف، بعد أن أدت رسالتها الجنائية والتاريخية في حماية الأحياء وتطهير الكلية من دنس الفساد.

صعدت السلالم الحجرية نحو الساحة الخارجية للجامعة، ووقفت تحت أشعة الشمس المشرقة، مستنشقة الهواء النقي المفعم برائحة الياسمين البري والقهوة الصباحية الدافئة المنبعثة من مقاصف الطلبة.

لمحت من بعيد زميلاتها في قسم الأدب العربي يلوحن لها بابتسامات عريضة وترحيب حار، فتحركت نحوهن بخطى واثقة، مستقرة، وشامخة القامة.

كانت تحمل في صدرها قلب سولارا النابض بالحب والحياة، وفي عقلها برود آسيا الاستراتيجي الصارم.. مستعدة لخوض غمار نصوصها ومشاريعها القادمة بروح جديدة صاغتها التجربة، وصارت على يقين مطلق بأن القلم الذي يملك شجاعة المواجهة، لا يمكن لأي منظومة في هذا العالم أن تكسر سنه أو تمحو أثره.

الفصل السادس:

ذئاب القلعة العاجية

لم يكن سقوط البيدق يعني بالضرورة خلوّ الرقعة من التهديد، بل كان في أعراف اللعبة إيذاناً بتحرك القطع الثقيلة التي تقبع في الخطوط الخلفية.

بعد مرور ثلاثة أيام على تشميع مكتب الدكتور عاصم بالشمع الأحمر، تحولت الكلية إلى ما يشبه خلايا نحلٍ مضطربة؛ الأساتذة يتحدثون بهمسٍ مستمر في الممرات، والطلبة يسترقون السمع، بينما حافظت سولارا أو بالأحرى القناع الذي تتناوب عليه مع آسيا على حضورها الرتيب في المحاضرات، كأنها مجرد شاهدة عيان لا ناقة لها في الحرب ولا جمل.

في صباح ذلك اليوم، كانت شمس حزيران اللاهبة قد بدأت تفرض سيطرتها على ساحات كلية الآداب، متجاوزة برودة تشرين التي شهدت المعارك الأولى.

جلست سولارا في المقصف الخارجي، ترتشف قهوتها المرة ببطء، وتتأمل الملف الأزرق المخملي المستقر في حقيبتها؛ صك الأمان الذي انتزعته لضمان مصل والدها الطبي.

وبينما كانت غارقة في تأملاتها، تقدم نحو طاولتها طالبٌ من قسّم الدراسات العليا، وجهه شاحب وملامحه توحي بالتردد. انحنى قليلاً وسلّمها مغلفاً ورقياً صغيراً أصفر اللون، خلو من أي طابع أو اسم، وقال بصوت مخنوق:

هذا من الدكتور عاصم.. طُلب مني إيصاله إليكِ يداً بيد، دون أن يراكِ أحد.

وقبل أن تنطق بكلمة، استدار الفتى واختفى بين الحشود.

غاص وعي سولارا في لحظة ذعر خاطفة، لكن سرعان ما زحفت لتتسلم زمام الأطراف وتخمد الارتجاف قبل أن يظهر على السطح.

فتحت المغلف ببرود رخامي مألوف، لتجد بداخله ورقة صغيرة مسطرة بخط يد عاصم المألوف، لكنه كان خطاً مهتزاً، ينم عن جدران زنزانة التحقيق التي يقبع خلفها.

لم تكن الرسالة تحمل اعتذاراً، بل كانت فحيحاً مسموماً يخرج من وراء القضبان:

إلى الفتاة التي ظنت أنها كسبت المباراة، أهنئكِ على شجاعتكِ ،لكن ليكن بعلمك أن السجن ليس نهاية العالم للذئاب، والتحقيقات التي بدأت معي لن تقف عند حدود مكتب الشؤون القانونية.

مروان والشبكة المالية لن يتركوني أسقط بمفردي، وإذا انفتح فمي بالكامل، فلن تحميكِ أوراقكِ الرقمية ولا ملف منحتكِ الاستثنائي. هناك لاعب جديد سيدخل الكلية غداً، مشرفٌ بديل تم تعيينه خصيصاً ليتسلم ملف روايتك المزعومة .

إنه يملك مفاتيح عقلكِ يا سولارا، وهو يعلم عنكِ أكثر مما تظنين. احذري النقلة القادمة، فالملك لا يزال يملك وزيراً قادراً على حرق الرقعة.

أطبقت آسيا قبضتها على الورقة حتى تجعدت بين أصابعها، ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلوح قمة مبنى رئاسة الجامعة.

الخطة المضادة قد بدأت بالفعل؛ عاصم في حبسه لا يزال يمثل تهديداً ارتدادياً، والشبكة بقيادة مروان لم تستسلم، بل قررت إرسال بيدق جديد مشرف أكاديمي بمهام استخباراتية ونفسية لتفكيك حصونها من الداخل واستعادة المستندات لعام ٢٠٢١.

تمتمت آسيا بنبرة جافة سكنت أرجاء وعيها المشترك:

يريدون اللعب في مساحتنا السيكولوجية يا سولارا.. دعيهم يأتوا، فالعمق هنا أشد عتمة من سراديبهم...

في العاشرة من صباح اليوم التالي، كانت قاعة السمينار الصغيرة في قسم الأدب العربي تعبق برائحة الورق القديم وخشب الصنوبر المصقول.

استُدعيت سولارا لمقابلة المشرف الأكاديمي البديل، الدكتور يوسف الورد. حين دلفت إلى القاعة، لم تجد أستاذاً تقليدياً، بل رجلاً في أواخر الأربعينيات، يرتدي سترة كحلية أنيقة، ويضع نظارات طبية رفيعة الإطار تخفي خلفها عينين لا ترمشان إلا نادراً.

كان يجلس، وأمامه كوب شايٍ ساخن يخرج منه بخار خفيف، وبجانبه وُضعت المسودة الخاصة بسولارا بطريقة منظمة ومستفزة، وكأنها قطعة من لحمٍ تم تشريحه لم يرفع رأسه فور دخولها.

استمر في تقليب صفحات المسودة بإصبعين طويلين، ببطءٍ شديد، متوقفاً طويلاً عند الفقرات التي تصف آسيا

بعد دقيقة من الصمت الذي ساد الغرفة، رفع رأسه. لم تكن في عينيه عدائية، بل كانت هناك قراءة فاحصة، وكأنه يرى ما تحت جلدها.

- مرحباً....
- أهلا دكتور، لقد استدعيتني...

وضع قلم الحبر الذهبي الخاص به على الطاولة، وأصدرت حركة وضعه صوتاً معدنياً حاداً قاطعاً للسكون.

أمال رأسه قليلاً بابتسامةٍ مائلة لم تصل لعينيه الباردتين، ثم دفع المسودة باتجاهها ببطء، ولم يتركها إلا عندما لمست أطراف أصابعه أطراف أوراقها.

بقيت يده ثابتة فوق الأوراق، ضاغطاً عليها برفق، وكأنه يمنعها من الهروب. ظل صامتاً، ثم سحب نسخة من مخطوطة القديمة التي كان يخفيها تحت المسودة ووضعها بجانب روايتها. كانت المخطوطة مفتوحة على صفحةٍ تصف لعبة الشطرنج، ووضع إصبعه على عبارة محددة في المخطوطة، ثم نقل إصبعه مباشرة إلى نفس العبارة المكتوبة في مسودتها.

لم ينطق بكلمة. اكتفى بالنظر إلى ساعته اليدوية، ثم نظر إلى سولارا، وأغلق المخطوطة برفقٍ شديد، وكأنه يغلق نعشاً.

ثم همس بصوت يكاد لا يسمع:

يمكنكِ الذهاب الآن..

خرجت آسيا من القاعة، وأغلقت الباب خلفها بهدوء، لكن بمجرد أن أصبحت في زاوية الممر المهجور، تلاشت خطواتها الواثقة.

استندت بظهرها على الجدار البارد، كانت أنفاسها تخرج متقطعة، محبوسة في صدرها كأنها تحاول الهروب من زنزانة.

ارتجفت يداها لدرجة أنها لم تستطع إدخال المفتاح في حقيبتها. لم يكن يوسف قد قال لها شيئاً، لكنه قال كل شيء؛ لقد أخبرها دون أن يفتح فمه أنها مجرد بيدقٍ صغير في رقعة شطرنج يحركها هو. شعرت بسولارا تنهار في أعماق وعيها، وبدأ القناع الرخامي الذي ترتديه يتشقق تحت وطأة نظراته.

أخرجت هاتفها، كانت أصابعها ترتعش بعنف، أرادت أن تحذف أي شئ له علاقة بهذه اللعبة كلها، لكنها توقفت. حدقت في الشاشة، ثم تحولت نظرتها من الذعر إلى برودٍ جليدي حاد.

أدركت في تلك اللحظة أن يوسف لا يريد القضاء عليها، بل يريد أن يراها وهي تحاول القضاء عليه، ليتسلى بمشاهدة صراعها.

أعادت وضع الهاتف في جيبها، ثم وقفت باستقامة، ومسحت عرقاً بارداً عن جبينها. لم تعد آسيا التي دخلت، بل أصبحت آسيا التي تدرك أنها الآن في منطقة القتل. تحركت نحو المخرج بخطى بدت وكأنها تعلن الحرب؛ فإذا كان يوسف يريد رقعة شطرنج، فستلعبها معه، حتى لو كان الثمن أن تنهار الرقعة بالكامل فوق رؤوسهم جميعاً.

عادت سولارا إلى الشقة القديمة، وحالة من التوجس الخفي تلف جوانحها كأنها ظلال السرو التي تركتها خلفها في باحة الكلية.

رائحة شاي الميرمية الذي أعده والدها قبل رحيله إلى قيلولته كانت تملأ الأرجاء، تمنح المكان دفئاً ظاهرياً عاجزاً عن طرد البرد السيكولوجي الذي زرعه الدكتور يوسف الورد في عقلها.

أغلقت باب غرفتها بالمزلاج، وسندت ظهرها إلى الخشب بضع ثوانٍ وهي تستمع لنبضات قلبها المتسارعة؛ يوسف لم يكن كعاصم، فعاصم كان مدفوعاً بالخوف على عائلته، أما يوسف فكان يتحرك بهدوء جراح نفسي يمسك بمشرط يشرح به طبقات وعيها.

جلست خلف مكتبها، وبدئت الأفكار تجوب في عقلها وتكلم نفسها:

أه منكِ يا سولارا.. اهدئي في قاعكِ المظلم ولا تدعي رعبكِ يفسد خطوط التماثل في الرقعة.

يوسف الورد ليس ساحراً، إنه مجرد ناقد أدبي ذكي استأجرته الشبكة الماليّة لمروان ليمارس علينا ما يُسمى في علم النفس بالترهيب المعرفي.

نعم، هو يعرف أن النص يتطابق مع 'ترانيم الظل الراحل'، ويعرف أن آسيا هي القناع؛ لأن من كتب مخطوطة ٢٠٢١ كان يملك آلية دفاع مشابهة تماماً لآليتنا قبل أن ينكسر تحت وطأة الابتزاز.

يوسف يظن أنه يمسك بالمشرط، لكنه لا يعلم أن المشرط سلاح ذو حدين.

إذا كان يملك مفاتيح عقلكِ، فأنتي تملكين وثائق إدانتهم الرقمية، والتناص الذي أرعبكِ هو ذاته الحبل الذي سوف تلفينه حول عنق يوسف الورد في ندوة الكلية القادمة.

ثقي ببرود تلك التي تدعى آسيا.. فالملك قد أرسل وزيره الأخير، وهذه علامة على اقتراب الهزيمة....

انقضى المساء، واستحالت أجواء المدينة إلى سكون مطبق غلفته الرطوبة الحزيرانية الخانقة. كانت آسيا لا تزال مستيقظة تحت ضوء المصباح المكتبي الضئيل، والمخطوطة القديمة "ترانيم الظل الراحل" مفتوحة أمامها بجانب مسودة روايتها.

لم تكن تدرس البنية الأدبية للنصوص هذه المرة، بل كانت تبحث عن خيط رفيع يربط الدكتور يوسف الورد بأحداث عام ٢٠٢١؛ فالأسماء التي وردت في الهوامش السفلية للمخطوطة كانت تحتوي على حروف أولى ورموز مشفرة لم تلتفت إليها سولارا في قراءتها السطحية الأولى.

باستخدام قلم رصاص دقيق، بدأت آسيا بمطابقة الحروف الأولى للأسماء الواردة في الأرشيف المالي لعام ٢٠٢١ مع سجل الأساتذة القدامى بالكلية.

توقفت أصابعها فجأة عند الرمز (ي. و) المكتوب بحبر بني باهت في الصفحة المئة والعشرين من المخطوطة، وبجانبه عبارة كتبت بخط يد الكاتب المنتحر قبل وفاته بأيام:

الوريث الصغير يراقب الممرات، يتقاضى ثمن صمته بمنحة بحثية في السوربون.. يوسف لم يكن ضحية، كان عيناً لعاصم في غرفتنا.

شعت عينا آسيا بريقاً رمادياً حاداً؛ الصورة اكتملت بالكامل في رأسها كلوحة فسيفساء جنائية.

يوسف الورد لم يكن غريباً عن الشبكة، بل كان البيدق الصغير لعام ٢٠٢١ الذي تلوثت يداه بالصمت والمراقبة مقابل ترقيته الأكاديمية وإرساله للخارج، والآن عاد ليحمي إرثه الملوث ويمنع سولارا من كشف ماضيه المستور وراء هيبته النقدية الفاخرة.

مدت يدها بخطى ميكانيكية حاسمة لا تردد فيها، وسحبت هاتفها الصغير من معطفها المعلق. فتحت واجهة الحساب الوهمي المشفر ذاته، وصاغت رسالة بريدية جديدة ووجهتها مباشرة إلى البريد الشخصي للدكتور يوسف الورد، وضمنت في المرفقات صورة واحدة فقط صورة الصفحة المئة والعشرين من المخطوطة حيث يظهر رمزه (ي. و) وبجانبه أمر التحويل المالي الفرنسي لعام ٢٠٢١ المختوم بختم الشؤون الإدارية القديم.

كتبت في نص الرسالة بنبرة جافة، فصحى وصارمة خلت من أي تعبير عاطفي:

"إلى الدكتور يوسف الورد، المشرف الأكاديمي الموقر.. النص الذي تشرحه بمشرطك النقدي يملك هوامش تاريخية داكنة للغاية، والوريث الصغير لعام ٢٠٢١ بات اليوم أستاذاً يخشى على سمعته الباريسية من التلوث.

التناص البنيوي بين روايتي وبين المخطوطة ليس مجرد آلية دفاع أدبية، بل هو مرآة لليلتك الأخيرة مع 'الظل الراحل'، حين تركتَ ذلك الكاتب يواجه مصيره وحيداً تحت ذريعة البحث العلمي، أتكلم عن الكاتب الذي انتحر يا دكتور..

ندوة النقد المقارن غداً صباحاً في القاعة الكبرى ستكون الرقعة التي نلتقي عليها؛ إما أن تكون مناقشتك لمسودتي إقراراً بعبقرية آسيا وحصانتها الأكاديمية المطلقة، أو أترك للجمهور وللمحقق صلاح متعة قراءة الهامش مئة وعشرين على شاشات العرض الكبرى. النقلة لك.. كش ملك.

أرسلتُ الرسالة، وراقبتُ شاشة الهاتف حتى ظهرت علامة التسليم بنجاح. أغلقتُ الدفتر البنفسجي ببرود، متيقنة أن ليل يوسف الورد سيكون أشد عتمة من ليل عاصم، فقد ألقيتُ الجمرة في مخزن وقوده.

في مصباح اليوم التالي، كانت القاعة الكبرى بكلية الآداب تغص بالوجوه؛ مزيج خانق من الأساتذة، طلبة الدراسات العليا، ولفيف من النخب الأكاديمية الذين جاءوا ليروا "المبارزة". كان الصمت ثقيلاً، مشحوناً بتوقعات خفية، وكأن الجميع يشم رائحة وشيكة لانهيارٍ ما.

جلستُ في الصفوف الخلفية، أراقب ساعة القاعة وهي تقترب من العاشرة. كل ثانية كانت تمحو لوناً من وجه يوسف حين دلف إلى القاعة؛ كان يمشي بخطواتٍ تفتقد لتوازنها المعتاد، ووجهه الشاحب يوحي بأنه قضى ليلته في محادثة الأشباح.

صعد إلى المنصة، وضع أوراقه، وجالت نظراته في القاعة كغريقٍ يبحث عن طوق نجاة، حتى استقرت عيناه على عينيّ في آخر القاعة. في تلك اللحظة، رأيتُ الخوف يتسرب إلى حصنه الحصين، وشعرتُ بنصرٍ بارد يسري في عروقي.

بدأ يوسف الندوة بصوتٍ مبحوحٍ غاب عنه رنين الغرور المعتاد، بينما كنتُ أجلس في مقعدي، أقبض على هاتفي تحت الطاولة، بإصبعٍ واحدة مستعدة لإطلاق الطلقة الأخيرة.

افتتح يوسف الجلسة بصوت رخيم، لكنه كان يحمل حشرجة خفية وعجزاً طالما حاول مداراته وراء نظاراته الرفيعة. ألقى مقدمة نقدية طويلة عن بنية الرواية السيكولوجية، وحين وصل إلى تشريح مسودة سولارا، التفت نحوها ونظر في عينيها الرماديتين؛ كانت أصابعه تقبض على الأوراق بحدة تشنجية التقطتها عين آسيا التحليلية على الفور. رسالة الليل المشفرة والهامش مئة وعشرين كانا يربضان فوق صدره ككابوس جاثم يهدد بنسف تاريخه الباريسي بالكامل أمام زملائه وتلاميذه.

قال يوسف والكلمات تخرج من فمه ثقيلة كأنها قطع من حديد:

"إن الطالبة سولارا.. تقدم في نصها نمطاً فريداً من الانفصام الأدبي البنيوي..

صمت قليلاً قبل أن يكمل....

شخصية آسيا في الرواية ليست مجرد قناع درامي، بل هي تجسيد للحق الأكاديمي والتاريخي الذي يسعى لتطهير الواقع من مغالطة التأويل.

النص يملك حصانة إبداعية ونقدية مطلقة، وأوصي باسم القسم باعتماده كنموذج إبداعي لهذا العام، دون الحاجة لأي تعديل أو حذف في خطوطه الدفاعية.

ساد صمت عميق في القاعة، وتبادل الأساتذة نظرات الاستغراب من هذا المديح المطلق وغير المشروط من ناقد عرف بقسوته وتفكيكه للنصوص. نظرت آسيا إليه بابتسامتها الرمادية الباردة، ومالت نحو الميكروفون قائلة بنبرة فصحى جزلة سكنت أرجاء القاعة:

"شكراً للدكتور يوسف الورد على هذا التشريح الحصيف.. الأدب يا سادة هو النقلة التي تعيد ترتيب الرقعة حين تظن البيادق أنها تملك السيطرة على المصائر.

النص سيبقى كما كُتب، والأسماء في الهوامش ستبقى مؤمنة طالما بقي النقد ملتزماً بحدود الحقيقة."

حين انتهت الندوة، ونزلت سولارا عن المنصة وسط تصفيق الحضور، شعرت بالوعي الرخامي لآسيا ينسحب إلى الخلف بنعومة فائقة، مفسحاً المجال لنبضاتها الإنسانية لتعود وتستقر في معصمها.

لم يكن انسحاباً انكسارياً، بل كان تسليماً واعياً للمقود بعد إغلاق جولة مواجهة أخرى بنجاح ساحق. التفتت نحو يوسف الذي كان يجمع أوراقه بوجل، وغادرت القاعة نحو باحة الشمس المشرقة، وهي على يقين مطلق بأن الحقبة الذهبية لروايتها ولحياتها باتت تُكتب بيدين متصالحتين لا تعرفان الارتجاف.

ظ

الفصل السابع:

لعبة التناص المفقود

كانت شمس حزيران القاسية ترسل أشعتها العمودية عبر شقوق الستائر الخشبية لغرفة سولارا، لتسقط كخطوط ذهبية حادة فوق الدفتر البنفسجي المفتوح. ساد سكون مطبق في أرجاء الشقة القديمة، لم يكن يقطعه سوى النقر الرتيب لأصابع سولارا على حافة مكتبها الخشبي المتواضع.

كانت سولارا بكامل وعيها الإنساني، غارقة في حمى الكتابة الإبداعية لإنهاء الفصول الوسطى من روايتها . كانت السطور تتدفق من حنجرتها وقلمها بغزارة غير معهودة، كأن هناك يداً خفية تملي عليها تفاصيل النص السيكولوجي الأسود.

توقفت أصابعها فجأة، وشعرت بقشعريرة باردة تسري في عمودها الفقري وهي تقرأ المشهد الذي خطته للتو:

في الفصل السابع من المسودة، تصف فتاةً تدعى سرور يتم تخديرها ونقلها تحت جنح الليل في سيارة إسعاف بيضاء تحمل شعاراً طبياً مطموساً، لتستقر في جناح معزول بمصحة السلام النفسية الواقعة في الأطراف الجبلية النائية للمدينة، حيث يُشرف عليها طبيب ذو ملامح صارمة يُدعى الدكتور كمال، يتقاضى ثمن صمته من حساب مالي غامض يتبع لإدارة الكلية.

انفتحت عينا سولارا بذعر حقيقي، وسقط القلم من بين أصابعها ليتدحرج فوق البلاط البارد بصوت رنّ في الصمت.

لم يكن هذا النص خيالاً محضاً؛ فالأسماء والتفاصيل الجغرافية والمصحة كانت حقيقية وتوجد بالفعل في ضواحي المدينة.

والأهم من كل هذا أنه كل ما يكتب في روايتها يحدث في أرض الواقع ، هذا يعني أن رغد يمكن أن يكون مصيرها مثل مصير فتاة التي تدعى سرور، شعرت بشرخ مخيف في وعيها؛ هل كانت هذه الكلمات نتاج مخيلتها الأدبية، أم أن آسيا الكامنة في أعماق عقلها الباطن كانت تستخدم حبرها لتسريب حقائق جنائية عثرت عليها في الوثائق السرية للخزانة 13 دون أن تدري سولارا؟

همست سولارا بصوت مرتجف وهي تتأمل الورقة.

_آسيا.. ماذا يحدث هنا؟

هذا ليس تناصاً أدبياً.. هذه نبوءة أو جريمة حية تحدث الآن خارج جدران هذه الغرفة!

تراجعت الدموع إلى الوراء فوراً، واعتدلت الجلسة بتلك الآلية الميكانيكية الصارمة التي تعلن حضور آسيا المتأهبة.

التقطت القلم بثبات رخامي مألوف، ودونت الرد في الحاشية السفلية بالخط الحاد والمائل:

يا سولارا، رغد لم تمت ولم تتبخر في الهواء كما أشاع عاصم؛ لقد عثرتُ في الهوامش المالية لملف عام ٢٠٢١ على بند غامض يتكرر شهرياً تحت مسمى رعاية أكاديمية استثنائية خارج الأسوار، وموجه مباشرة إلى حساب مصحة السلام.

التناص السيكولوجي الذي كتبتِهِ بيدِكِ ليس سحراً، بل هو العقل التحليلي المشترك الذي بدأ يربط النقاط المنفصلة.

رغد حية، وهي معتقلة خلف الجدران البيضاء للمصحة لإبعادها عن ملف الاختلاس، والشبكة بقيادة مروان تدفع ثمن بقائها في الظلام. نصوصنا غدت خريطة طريق جنائية، والنقلة القادمة ستكون خارج الكلية تماماً.. سنذهب لإعادة القطعة المفقودة إلى الرقعة."

في الرابعة من عصر اليوم ذاته، قررت سولارا أن تخبر الشرطة لعلهم يتحرون هذا الأمر فقدمت بلاغاً لهم، ما إن سمعوا حتى عزموا الى ذهاب إلى ذلك المكان ...

كانت سيارة الأجرة القديمة تقطع الطريق الجبلي المتعرج المؤدي إلى أطراف المدينة الشمالية، حيث تتلاشى البنايات الإسمنتية المألوفة لتحل محلها جبال صخرية جافة تغطيها شجيرات الشوك.

نزلت آسيا من الحافلة بخطى ثابتة مستقرة، يلتف وشاحها القطني الداكن حول عنقها، وتستقر حقيبتها الجلدية تحت ذراعها كدرع في مواجهة الريح الباردة التي تهب من الأعالي.

أمامها، تربع مبنى مصحة السلام النفسية كقلعة حجرية رمادية، تحيط بها أسوار حديدية شاهقة تعلوها أسلاك شائكة، وبوابة حديدية ضخمة يقف عندها حارس عجوز يرتدي زياً كحلياً باهتاً.

لم يكن الحذر غائباً عن حسابات آسيا الاستراتيجية؛ فالوقوع في هذا المكان أو إثارة الشبهات يعني ضياع كل المكاسب الأكاديمية التي حققتها ضد مروان ويوسف الورد.

تقدمت نحو البوابة، ولم تفرط في إظهار أي ارتباك، بل نظرت إلى الحارس بعينيها الرماديتين الساكنتين وقالت بنبرة فصحى جزلة خلت من أي تعبير عاطفي:

مساء الخير.....

أنا الباحثة سولارا من قسم الأدب العربي بجامعة المدينة، ولدي إذن رسمي للدخول ومقابلة الدكتور كمال لمطابقة بعض البيانات البحثية الخاصة بملفات قديمة.

زورت آسيا نبرة صوتها لتبدو رسمية وبيروقراطية للغاية، مستغلة هيبتها الأكاديمية وصيتها الذي شاع بعد ندوة النقد المقارن.

تفحص الحارس وجهها الصارم لثوانٍ، ثم دار مفتاحه الثقيل ليتسع الشرخ الحديدي للبوابة ويسمح لها بالعبور.

ولجت آسيا إلى الممر الرئيسي للمصحة، حيث كانت الجدران مطلية بلون رمادي باهت يبعث على الكآبة، والرائحة تعبق بمزيج حاد من المواد المطهرة والكلور المسكوب.

كانت الغرف مغلقة بأبواب خشبية سميكة تحتوي على نوافذ زجاجية صغيرة ومصفحة، ويتردد في الأروقة صدى همسات متقطعة أو ضحكات مكتومة لمرضى غيبت العقاقير الكيميائية وعيهم عن الواقع.

وصلت إلى نهاية الممر أمام مكتب الدكتور كمال..

طرقت الباب بخفتين ودخلت دون انتظار؛ وجدته رجلاً ستينياً شاحب الوجه، يجلس خلف مكتب معدني رخيص وتحيط به ملفات طبية متراكمة. ما إن رآها حتى عقد حاجبيه بحذر:

"من أنتِ؟ وكيف دخلتِ إلى هنا في هذا الوقت؟"

تقدمت آسيا نحو مكتبه، ولم تجلس، بل وضعت يدها اليمنى فوق سطح المعدن البارد، ونظرت في عمق عينيه قائلة بصوت منخفض وصارم كشفرة الجراح:

"أنا النقلة التي لم تحسبوا لها حساباً يا دكتور كمال.

أنا سولارا، أعتقد أن دكتور يوسف ومروان حدثوك عني كثيراً...

لكن دعني أذكرك أن نسيتني...

الملف المالي لجامعة المدينة لعام ٢٠٢١ يقبع في جيب معطفي، ومعه بند 'الرعاية الاستثنائية الذي تتقاضاه شهرياً لإبقاء الطالبة رغد تحت تأثير المهددات الكيميائية.

المحقق صلاح يعلم بمكاني الآن، وإذا لم أخرج برفقة رغد خلال عشر دقائق، فإن الأسوار الرمادية لهذه المصحة ستتحول إلى زنزانة رسمية تحاكمك بتهمة الاحتجاز القسري وتزوير التقارير الطبية. الوقت يتحرك بسرعة.. كش ملك.

تسمّر الدكتور كمال في مقعده، وبدت تقاطيع وجهه الستيني كأنها نُحتت من شمع بارد تحت وهج المصباح الفلوري.

تحركت يده بشكل تلقائي نحو سماعة الهاتف المكتبي الأسود، لكن نظرة آسيا الرمادية، الخالية من أي تردد أو ذعر صبياني، جعلت أصابعه تتجمد في الهواء. كان يعلم، بخبرته الطويلة في التعامل مع الابتزازات المؤسساتية، أن الفتاة الواقفة أمامه لا تخمن؛ إنها تملك الأرقام، التواريخ، والأهم من ذلك:

أمر الدفع المالي الشهري الذي يحمل توقيعه الحي بجانب توقيع مروان.

أنزل يده ببطء، وخرج صوته خافتاً ومصحوباً بحشرجة الخوف المكتوم:

أنت لا تفهمين شيئاً يا آنسة..

رغد لم تُحتجز هنا رغماً عنها في البداية. لقد جاءت إلينا قبل سنوات وهي في حالة انهيار عصبي كامل بعد أن هددها عاصم بتدمير سمعة والدها الراحل الدكتور لؤي.

نحن.. نحن كنا نحميها من الانتحار، لكن المنظومة المالية في الجامعة استغلت وجودها هنا لتجعل منها ورقة ضغط دائمة.

أجابته آسيا بنبرة جافة وفصحى جزلة قاطعت دفاعه بصرامة الشفرة

وفر تبريراتك القانونية للمحقق صلاح، يا دكتور.

أنا لا يهمني التاريخ الإنساني لتواطئكم؛ أنا هنا لأستعيد القطعة المفقودة من الرقعة.

خذني إلى جناحها الآن، دون جلبة، ودون أن يشعر الممرضون في الرواق الخارجي.

نهض الطبيب بجسد متهالك، وسحب حزمة من المفاتيح الحديدية الثقيلة من درج مكتبه.

سار أمامها في الممر الغربي المعزول للمصحة، حيث استبدلت الأرضيات الرخامية بإسمنت رمادي خشن، والجو يزداد برودة ورطوبة مع الاقتراب من الغرف الخلفية الشبيهة بالزنازين.

توقف عند الباب رقم (107)، أدار المفتاح الثقيل دورتين متتاليتين، فانفتح الباب الخشبي المصفح ليصدر صريراً حاداً مزق سكون المكان.

في داخل الغرفة الضيقة، التي لم تكن تحتوي سوى على سرير حديدي ملتصق بالأرض ونافذة صغيرة مرتفعة تسمح لضوء الشمس الشاحب بالمرور، كانت تجلس فتاة في منتصف العشرينات من عمرها.

كان شعرها مشوباً بخيوط من الفضة المبكرة، وتلتف حول جسدها النحيل بسترة صوفية رمادية داكنة.

ما إن وقعت عيناها على سولارا، حتى تحركت في حدقتيها الواهنتين نظرة من الوجل والدهشة؛ كانت الملامح تتطابق بدقة مرعبة مع الصورة القديمة لسرور المرفقة في مخطوطة عام ٢٠٢١، لكن سنوات التخدير الكيميائي والصمت القسري قد حفرت عميقاً في وجهها.

خطت آسيا إلى الداخل بخطى ثابته وموزونة، وانحنت بمستوى رؤيتها، بينما انسحب الدكتور كمال ليقف عند عتبة الباب بحراسة ذعره.

قالتها آسيا بصوت منخفض حمل لأول مرة نبرة من الطمأنينة الهادئة المستوحاة من وعي سولار الكامن:

رغد؟....

أنا سولارا....

صدقتكِ لقد عثرتُ على مخطوطة 'ترانيم الظل الراحل' في الخزانة 13، التي بحثتني عنها وعثرتُ على بعض من يومياتكِ

اللعبة انتهت، وعاصم يقبع الآن خلف قضبان التحقيق.. جئتُ لأخرجكِ من هذا الممر المظلم.

ارتجفت شفتان رغد، وامتدت أصابعها النحيلة لتتحسس وجه سولارا كأنها تتأكد من أنها ليست هلاساً بصرياً بفعل العقاقير الصباحية.

انهمرت دموعها بصمت، وخرج صوتها مبحوحاً كأنه قادم من قبو عميق:

عاصم.. سقط؟

والدكتور لؤيّ الذي دمر بسببهم...

هل علموا بشأن الأوراق الملوثة التي حاول حرقها؟

أجابتها آسيا بثبات رخامي أعاد للغرفة توازنها السيكولوجي:

كل شيء بات تحت السيطرة رقمياً وجنائياً..

والدكِ حاول حمايتكِ، وعاصم ومروان استخدموا ذلك لخنقكِ.

لكن الرقعة تغيرت الآن؛ فالوزير بات يملك أجنحة، ونحن من يدير نقلة الهجوم المضاد الكبرى.

والتفتت بحدة نحو الدكتور كمال الواقف عند الباب كالمتهم المنتظر للحكم.

قالتها آسيا بصرامتها:

دكتور كمال....

ستقوم الآن بصياغة تقرير طبي فوري ومختوم، يُفيد بأن حالة المريضة رغد قد استقرت بالكامل وتسمح لها بالمغادرة الفورية تحت مسؤولية عائلتها الأكاديمية.

سأخرج برفقتها من البوابة الرئيسية أمام عيني الحارس، وإذا سُئلت عن السبب من قِبل إدارة مروان، فستخبرهم أن الأمن الوقائي قد تسلم الملف الطبي بقرار سيادي.

أي تلكؤ أو تواصل مع مروان قبل مغادرتنا حدود الجبل، سيعني انطلاق البريد الإلكتروني الثاني للمدعي العام، وللمحققين.

أسرع الطبيب نحو مكتبه لتنفيذ الأوامر بقلب يرتجف، بينما ساعدت سولارا التي بدأت مشاعرها الإنسانية الدافئة بالفيضان والامتزاج بقوة آسيا ساعدة سولارا رغد

على ارتداء معطفها القديم وجمع بقايا نصوصها الممزقة التي احتفظت بها في وسادتها طوال سنوات العزلة.

كانت تلك النصوص الممزقة تُمثل التناص المفقود؛ الحلقات الغائبة من رواية عام ٢٠٢١ التي تشرح كيف تلاقت مصائرهم جميعاً في ذات القبو.

مع حلول الساعة الخامسة والنصف عصراً، كانت سيارة الأجرة تقف مجدداً عند البوابة الحديدية الخارجية للمصحة.

ركبت آسيا بجانب رغد، والتقرير الطبي المختوم يستقر بجانب الدفتر البنفسجي في حقيبتها الجلدية.

تحركت السيارة ببطء لتهبط المنحدر الجبلي نحو المدينة، بينما كانت خيوط شمس الغروب البرتقالية تضرب أسوار المصحة الرمادية لتعلن انقشاع واحدة من أحلك جرائم المنظومة الأكاديمية.

التفتت رغد نحو سولارا وقالت وعيناها تلمعان بالأمل:

من تكونين حقاً يا فتاة؟..

لم أعهدكِ بهذه القوة منذ أن عرفتكِ، بل على العكس كنت أكثر من يخافون التورط بهذه الأمور...

نظرت إليها آسيا بعينيها الرماديتين الساكنتين وأجابت بابتسامتها الباردة الساخرة:

أنا سولارا التي عرفتها، لكنني غيرت طريقة اللعب هذه المرة، للتتناسب مع مصالحنا...

استقرت سيارة الأجرة أخيراً عند عتبة البناية الحجرية القديمة في ضواحي المدينة، حيث كان ضباب المساء الرقيق قد بدأ ينساب فوق الأسطح ليغسل آثار النهار الحارق.

ترجلت آسيا بخطى ثابته وموزونة، ممسكة بذراع رغد النحيلة التي كانت تتأمل الشوارع والوجوه بنوع من الذهول الطفولي، كأنها كائن انبعث حياً من مقبرة إسمنتية طال بقاؤه فيها.

صعدتا درجات السلم الحجري الضيق برفق، وحين انفتح الباب الخشبي الثقيل، اندفعت رائحة البيت الدافئة الممزوجة بالهيل والزعتر لتعانق ملامحهما المجهدة.

ما إن استقرت رغد فوق الأريكة الصوفية في الصالة، وسكب لها والد سولارا أبو أحمد كوباً من الشاي الساخن بوعي الأب الحاني الذي استوعب بحكمته وجلال سنّه طبيعة المعركة دون أن يسأل عن التفاصيل، حتى شعرت آسيا ببدء التلاشي التدريجي لقناعها الصارم.

تراجعت البرودة الميكانيكية الرخامية إلى الوراء بنعومة فائقة، لتفسح المجال بالكامل لسولارا الإنسانية المفعمة بالارتياح والدموع الدافئة:

انحنت سولارا أمام رغد، وأمسكت بكفيها الباردتين قائلة بصوت امتزجت فيه حشرجة البكاء بصلابة المنتصر:

أنتِ في أمان الآن يا رغد.. هذا بيتي، وهو حصنكِ الجديد الذي لن تطاله أيدي مروان ولا ذئابه.

انسحبت سولارا بعد ذلك إلى غرفتها الصغيرة لتترك رغد تأخذ قسطاً من الراحة تحت رعاية والدها.

جلست خلف مكتبها الخشبي، وسحبت الدفتر البنفسجي من الحقيبة الجلدية المليئة بالتقارير والنصوص الممزقة.

وضعت القلم فوق الصفحة الجديدة، وبدأت تدوّن بخطها الأنثوي الناعم السطور الأخيرة من هذا الفصل التاريخي:

إلى آسيا.. اليوم تلاقت خيوط النص بالواقع بشكل مرعب ومقدس. لقد استعدنا رغد من جوف الأسوار الرمادية، والتناص الذي كتبناه بحبرنا لم يكن وهمًا، بل كان الخريطة الجنائية التي قادتنا للتطهير. أنا لم أعد أخشى يوسف الورد ولا مروان؛ لأنني أدركت أن وجودكِ في أعماقي ليس مرضاً أو انفصاماً، بل هو العدالة الذاتية التي خلقتها روحي لأواجه بها بشاعة هذا العالم.

لقد أنقذنا نفساً كانت ستموت في الظلام، وروايتنا غدت صك الحرية الحقيقي لنا جميعاً.

أغلقت سولار الدفتر البنفسجي برفق، ونظرت إلى النافذة حيث بدأت النجوم تتلألأ في سماء المدينة الصافية، مستعدة لاستقبال الجزء الثاني من الحقبة الذهبية بوعي متكامل لا ينقسم ولا ينكسر.

الفصل الثامن:

ليلة الأقنعة المفتوحة.

تزاحمت الوجوه الأكاديمية والشخصيات المرموقة في القاعة الماسية الكبرى بمبنى رئاسة الجامعة؛ فالحدث لم يكن مجرد ندوة ثقافية عابرة، بل كان الملتقى السنوي للأدب السيكولوجي ونقد المخطوطات، وهو الغطاء الثقافي الفخم الذي اعتادت القلعة العاجية استخدامه لتلميع صورتها أمام الرأي العام والجهات الرقابية.

كانت الثريات الكريستالية الضخمة المعلقة في السقف الشاهق تعكس إضاءة باهرة تحاكي نهاراً زائفاً، بينما تحرك الخدم ببدلاتهم الرسمية يوزعون القهوة الممزوجة بالهيل بين النخب.

في الصفوف الأولى، جلس نائب رئيس الجامعة للشؤون المالية والإدارية، الدكتور مروان، محاطاً بهالة مصطنعة من الهيبة والنفوذ، وعيناه الثعلبيتان تمسحان القاعة بحذر متوتر رغم الابتسامة الدبلوماسية المستقرة على شفتيه.

في المقابل، كانت سولارا تجلس خلف طاولة المناقشة المستديرة على المنصة المرتفعة، وإلى جانبها الدكتور يوسف الورد الذي بدا كأنه طيف باهت يتحرك بآلية ميتة بعد أن شلت رسالة آسيا الليلية قدرته على المبادرة الهجومية.

حافظت آسيا على تموضعها السيكولوجي الصارم؛ فجسد سولارا كان مستقراً تماماً، وعيناها الرماديتان ترقبان مروان من فوق المنصة ببرود رخامي لا يهتز.

تحت ذراعها، استقرت الحقيبة الجلدية المتهرئة، لكنها لم تعد تحتل زاوية هامشية؛ بل كانت اليوم بمثابة صندوق الذخيرة الجنائية الذي يحتوي على التقرير الطبي المختوم لتهريب رغد، ومسودة رواية ، والأصل التاريخي لملف ٢٠٢١.

بدأت الندوة، واعتلى الميكروفون رئيس قسم النقد المقارن ليعلن بدء المبارزة الأدبية.

حين جاء دور يوسف الورد للحديث، تنحنح بصوت خافت، والتفت نحو الجمهور قائلاً بنبرة مهتزة حاول إخفاءها وراء نظاراته الطبية:

"إن النص الروائي الذي تقدمه الطالبة سولارا يمثل ظاهرة التناص الإجباري مع وثائق الواقع.

الشخصيات في روايتها لا تتحرك بوحي الخيال، بل تتبع مصفوفة سيكولوجية صارمة تفكك الجريمة وتجعل من الحبر قاضياً لا يرحم. إنني.. إنني أرى أن هذا العمل يحمل حصانة أدبية وقانونية تفرض على الكلية اعتمادها دون أدنى مساس."

التفت الدكتور مروان في جلبابه الفخم بنظرة حادة حملت مزيجاً من الغضب والذهول المكتوم نحو يوسف؛ فلم يكن هذا هو الاتفاق، كان مروان ينتظر من يوسف تشريح النص وتدمير مصداقية الفتاة أكاديمياً، لكنه وجد وزيره الأكاديمي يعلن الاستسلام المطلق على المنصة.

في هذه اللحظة، مالت آسيا نحو الميكروفون النحاسي، وسكنت أرجاء القاعة الفخمة لصوتها الفصيح الجزل، المنخفض والصارم كحد السيف:

"شكراً للدكتور يوسف على هذا الاعتراف النقدي الحصيف،" قالتها آسيا وعيناها تثبتان نظرة قاتلة مباشرة في حَدقتي الدكتور مروان المستتر خلف هيبته.

"الأدب السيكولوجي يا سادة ليس ترفاً عاجياً، بل هو تشريح للضمائر الملوثة التي تظن أن الأسوار العالية تحمي أسرارها. في الفصل الثامن من روايتي التي تحدث عنها

ضمن مشروعي، أصف نقلة محددة في الشطرنج تُدعى تضحية الوزير لحماية الملك الفاسد..

في هذا المشهد، يظن الملك أن التخلص من بيادقه كعاصم، واستئجار خبراء كبار لتفكيك وعي الخصوم، كفيل بطمس وثائق اختلاس قديمة تعود لعام ٢٠٢١.

لكن الملك ينسى أن القطعة المفقودة التي ظنوا أنها دُفنت في قبو المصحة الرمادية خلف الجبل قد عادت الليلة إلى الرقعة، وهي الآن تقف خلف الباب، مستعدة لقول النص الكامل."

شحب وجه الدكتور مروان بالكامل، واستحالت ملامحه الخمسينية إلى لون الرماد، بينما تحركت همسات حذرة بين الأساتذة والضيوف الذين بدؤوا يستشعرون أن الكلام يتجاوز النقد الأدبي ليصل إلى تصفية حسابات جنائية حية فوق المنصة العلنية.

ما إن أعلن رئيس القسم رفع الجلسة للاستراحة، حتى تحرك الدكتور مروان بخطى متسارعة ومتشنجة نحو الممر الخلفي المؤدي إلى المكاتب الإدارية المغلقة لقاعة المؤتمرات، ملوحاً بيده لآسيا بنظرة تآمريه تأمرها باللحاق به فوراً.

تبعته آسيا بخطى رتيبة وموزونة، يلتف وشاحها القطني الداكن حول كتفيها بثبات كبرياء لا يلين، وتستقر يدها اليمنى داخل جيب معطفها قابضة على هاتفها المخزن بالوثائق الختامية.

ولجا إلى مكتب الضيافة الفاخر ذي الجدران المكسوة بخشب الجوز والمفروش بالسجاد التبريزي الثمين. أغلق مروان الباب بعنف، واستدار نحوها وقد تلاشت كل معالم

الدبلوماسية الأكاديمية المصطنعة، ليحل محلها وجه الطاغية المحاصر الذي يرى حبل المشنقة يقترب من عنقه الفخم. انخفض صوته ليتحول إلى فحيح مسموم ومخلوق بالتوتر الحاد:

قالها مروان وهو يضرب بقبضته على سطح المكتب الزجاجي.

"أنتِ تلعبين بالنار يا سولار! أو أياً كان المسخ البارد الذي يدير لسانكِ الفصيح!"

"تظنين أن إخراج رغد من مصحة السلام سيعطيكِ النصر؟

رغد امرأة مجنونة طبياً وسجلاتها الرسمية تحت تصرفي، والتقرير الذي وقعتِ عليه مع كمال لا يساوي الحبر الذي كُتب به إذا قررتُ إرسال حرس الجامعة لمحوكِ من السجل المدني والأكاديمي بالكامل الليلة!"

خطت آسيا خطوة واحدة إلى الأمام، وثبتت نظرتها الرمادية الساكنة والمفرغة من أي خوف إنساني في عمق عينيه المتسعتين برعب مبطن بالغطرسة.

ارتسمت على شفتيها الابتسامة الساخرة الباردة التي تفرض شروط المنتصر على الرقعة، وقالت بنبرة هادئة وصارمة:

"أنت لا تزال تقرأ الرقعة بعيون عام ٢٠٢١ يا سيادة النائب، وهذا هو سبب سقوطك الحتمي.

رغد ليست مجرد شاهدة مريضة؛ التقرير الطبي الذي يقع في حقيبتي الآن مختوم بختم وزارة الصحة السيادي وليس بختم كمال المرتعش، والمحقق صلاح لا يقف خارج

الأسوار هذه المرة، بل يجلس في غرفة التحكم الرقمي بالقاعة الكبرى مستمعاً لكل كلمة نطقتها ونطق بها يوسف الورد.

عاصم اعترف بكل شيء في قبو التحقيق قبل ساعتين، وصكوك الاختلاس التي تحمل توقيعك المالي أصبحت الآن على طاولة المدعي العام."

اقترب مروان منها خطوة، وحاول استعادة قوته المنهارة بصوت مخنوق:

"الجامعة لن تسمح بالفضيحة.. المنظومة ستحميني لحماية سمعتها الفاخرة!"

أجابته آسيا ببرود قاتل وهي تلتفت نحو باب الخروج.

المنظومة تتخلى عن رؤوسها الكبيرة حين تدرك أن السفينة تغرق بالكامل.

"أنت لم تعد ملكاً يملك وزراء وبيادق؛ أنت الآن مجرد ملك محاصر في زاوية الرقعة، والنقلة القادمة ليست مناقشة أدبية لمشروعي الذي شرحت فيه روايتي...

النقلة القادمة هي خروجك بمظاهر الخزي مكبلاً بالأصفاد أمام الكاميرات الرسمية التي استدعيتها لتلميع صورتك.

اللعبة انتهت يا مروان.. كش ملك للمنظومة بأكملها...

استدارت آسيا ومشت مبتعدة بخطى واثقة لا تهتز، تاركة إياه وحيداً يتجرع مرارة السقوط المدوي تحت ظلال الجوز الفاخر.

انقشعت أضواء القاعة الماسية الصاخبة، وتلاشت خلف النوافذ المخدوشة للحافلة القديمة التي أقلت سولارا نحو ضواحي المدينة المعتمة.

كان غسق حزيران يلوّن الأفق بنسيج من الأرجواني الداكن والرمادي، بينما كان رذاذ دافئ، نادر في مثل هذا الوقت من السنة، يداعب زجاج الحافلة المهتز.

استندت سولارا برأسها المجهد إلى المعدن البارد، وشعرت بجهازها العصبي يئن تحت وطأة الارتداد العكسي الشديد.

لقد خاضت آسيا المعركة خلف كواليس ندوة النقد المقارن بشراسة جراح يستأصل ورماً خبيثاً، ووضعت نائب رئيس الجامعة مروان في قفص الاتهام العلني، لكن الثمن الجسدي والنفسي لهذا الصمود الرخامي كان باهظاً، وبدأ يتدفق الآن في عروق سولارا كأنه رصاص ذائب.

حين دلفت إلى الشقة القديمة، كان الصمت يلف الأرجاء ككفن دافئ. تفوح من الصالة رائحة القهوة بالهيل وشاي الميرمية، وفي الزاوية، كانت رغد تنام بعمق وهدوء لم تذقه منذ أشهر عديدة تحت دثار صوفي صنعه والد سولارا أبو أحمد، الذي كان يجلس على سجادة الصلاة يلهج بالدعاء الصامت لابتنته التي غدت حامية الديار. تحركت سولارا بخطى متهالكة نحو غرفتها الصغيرة، وأغلقت الباب بالمزلاج الخشبي، وسقطت بالكامل فوق مقعد مكتبها الخشبي المتواضع.

كانت يداها ترتجفان بشكل حاد، وعيناها تفيضان بدموع هجرت مآقيها طوال ساعات المواجهة.

سحبت الدفتر البنفسجي ذو الغلاف المخملي المتهرئ، وفتحت صفحة جديدة، والتقطت القلم بثقل يماثل حمل الجبال، لتخط كلمات ناعمة، متعرجة ومتشنجة، تعكس فيضان الوعي الإنساني المذعور:

"إلى آسيا.. أيتها الصخرة التي تحملت وزر الطغيان اليوم فوق المنصة:

أنا، أنا ارتجفت بالكامل. لقد رأيتُ وجه مروان وهو يستحيل إلى كتلة من الكراهية والذعر خلف كواليس قاعة المؤتمرات.

لقد هددنا بالمحو الكامل، ونطق باسمكِ كأنه يملك القوة لتمزيق أرواحنا.

نعم، المحقق صلاح كان هناك، وعاصم اعترف، ورغد تنام الآن في صالتنا آمنة.. لكن الخوف ينهش أحشائي.

ماذا لو أفلتت هذه الذئاب المالية من شبكة القضاء بفعل نفوذها؟

ماذا لو تحولت الحقبة الذهبية التي وعدتِني بها إلى زنزانة مظلمة تُغلق علينا للأبد؟

أنا عاجزة عن مواجهة الغد، وأشعر أن الحبر الذي نكتب به بدأ يتحول إلى دماء حقيقية تسيل من أطرافنا. أخبريني..

كيف ينام الجسد حين تنقسم الروح إلى ضفتين، ضفة تبكي طفولتها المكسورة وضفة تقاتل ببرود الموت؟

سقط القلم من يدها، وأسندت وجهها الشاحب إلى كفيها، وانهمرت في نوبة بكاء صامتة مزقت سكون الغرفة.

مرت دقائق ثقيلة، وتمتت لتستدعي آسيا...

بدأت فيها الغرفة تفقد حرارتها تدريجياً، وزحفت تلك البرودة الرخامية المألوفة والصارمة عبر مفاصل أصابعها. استقامت الجلسة بحزم لا يعرف الليونة، وتمفصلت الفقرات الصدرية لتعبر عن حضور آسيا المتأهبة بالكامل لمواجهة الشروخ النفسية.

التقطت القلم بذات الأصابع التي لم تعد ترتجف، وخطت الحواشي السفلية بالخط الحاد، المائل، والأنيق الذي يفرض نظام الشطرنج فوق فوضى المشاعر:

يا سولارا.. الدموع هي ترف البيادق قبل السقوط، ونحن لم نعد بيادق في رقعتهم الملوثة؛ نحن من يملك كش الملك الختامية.

خوفكِ من مروان هو صدى الاستعباد السيكولوجي الذي فرضه عاصم على الكلية لسنوات، لكن الواقع الحاضر يقول إن مروان الليلة لا ينام، بل يبحث عن وثيقة سفر أو مخرج ينجيه من حبل المشنقة الجنائية التي لففناها حول عنقه الفخم بفضل صمودكِ. مروان لا يملك القدرة على محونا، لأن صور الشيكات البنكية لعام ٢٠٢١ والتقرير الطبي السيادي لتهريب رغد قد استقرا في الخادم الرقمي المشفر والمحمي ببروتوكول لا تطاله أيديهم الحيوانية.

الخوف هو الأداة الأخيرة التي يملكونها، وحين ترفضين الانصياع له، يتلاشى نفوذهم كدخان في مهب الريح.

نحن لسنا روحاً منقسمة يا صديقتي؛ نحن كيان واحد تكاملت فيه دفء عاطفتكِ الإنسانية التي أنقذت رغد، مع برودي الرخامي الذي شل حركة الطغاة. نمي بسلام

وثقة.. نحن في قصة شارفة فصولها على الانتهاء، والنقلة القادمة ستشهد احتراق المنظومة العاجية بالكامل تحت وطأة الحقيقة."

انتصف ليل المدينة، وتحولت الغرفة الصغيرة إلى بؤرة ترقب مشحونة بالصمت المخيف.

كانت آسيا لا تزال مستيقظة تحت ضوء المصباح المكتبي الضئيل، والمخطوطة القديمة "ترانيم الظل الراحل" مفتوحة أمامها بجانب التقارير الطبية ويوميات رغد الممزقة.

لم يكن عقلها التحليلي ينام؛ فالخبرة الجنائية المكتسبة من نصوص الأدب الأسود علمتها أن الذئاب المحاصرة في الزاوية لا تستسلم، بل تلجأ عادة إلى الخيار: هدم المعبد على رؤوس الجميع ومحو الأدلة المادية قبل أن تصل إليها أيدي العدالة.

أثناء فحصها لهاتفها المشفر، لمحت إشعاراً رقمياً غامضاً يتحرك في بريدها الوهمي.

كانت رسالة مقتضبة قادمة من خط اتصال داخلي بمبنى الأمانة العامة للجامعة، أرسلها أحد الطلبة العاملين في نظام الأرشفة الليلي والذي كان يكنّ لسولار ووالدها وداً قديماً.

حملت الرسالة جملة واحدة أرعبت الوعي الكامن في الداخل:

"آنسة سولارا....

هناك تحركات مشبوهة الآن في ممرات التسوية السفلية..

نائب رئيس الجامعة مروان أصدر أمراً إدارياً عاجلاً بإخلاء مبنى الأرشيف القديم بحجة صيانة أنابيب الغاز، ورأيتُ رجالاً يرتدون ملابس صيانة يحملون براميل لمواد سريعة الاشتعال نحو الخزانة رقم 13.

يريدون حرق الأرشيف الليلة لإنهاء ملف ٢٠٢١ مرة وإلى الأبد قبل وصول قوة المدعي العام صباح غد.

لم ترمش عين آسيا، ولم ينحرف قناعها الرخامي الصارم شعرة واحدة، بل ارتسمت على شفتيها ذات الابتسامة الساخرة الباردة التي تعكس استيعاباً كاملاً للنقلة اليائسة للخصم.

لقد توقعت هذه الخطوة؛ فحرق الرقعة هو الملجأ الأخير للملك المحاصر.

تحركت أصابعها بثبات ميكانيكي حاسم على لوحة المفاتيح المضيئة، وصاغت رسالتين متزامنتين بأسلوبها الفصيح الجزل والمبرأ من أي انفعال.

الرسالة الأولى وجهتها مباشرة إلى هاتف المحقق صلاح المشفر:

للمحقق صلاح.. الملك المحاصر قرر حرق الرقعة الليلة بدلاً من الاستسلام.

الدكتور مروان يدير الآن عملية حرق مدبرة لمبنى الأرشيف القديم والتسوية السفلية بكلية الآداب لطمس الخزانة 13 وما تحتويه من أدلة اختلاس عام ٢٠٢١ ويوميات رغد المتبقية.

قوات الدفاع المدني والأمن الجنائي يجب أن تتحرك نحو الكلية تحت جنح الليل دون إطلاق صفارات الإنذار.

أنا متوجهة إلى هناك لضمان بقاء الأدلة المادية حية حتى وصولكم. النقلة الختامية بدأت، والجناة يمسكون بأعواد الثقاب."

أما الرسالة الثانية، فقد وجهتها إلى البريد الشخصي السري للدكتور مروان، وضمنت فيها لقطة شاشة رقمية حية تظهر تفاصيل حركة الحساب البنكي الذي استخدمه لتحويل أموال المصحة النفسية قبل ساعات فقط، وكتبت فيها عبارة واحدة بالخط الحاد والمائل:

"أعواد الثقاب التي تحمله يدك الليلة في الأرشيف لن تحرق ملف عام ٢٠٢١ يا سيادة النائب، بل ستكون الوقود الذي يشعل زنزانتك القادمة.

النسخة الرقمية الأصلية مبرمجة للبث العلني لوسائل الإعلام في ذات الثانية التي يرتفع فيها الدخان من مبنى الكلية.

أنا في طريقي إليك.. لنرى من يملك القدرة على الصمود وسط النيران.

ارتدت آسيا معطفها الصوفي الداكن، ولفّت الوشاح حول عنقها، ووضعت الدفتر البنفسجي والمخطوطة القديمة في حقيبتها الجلدية بحرص بالغ.

نظرت إلى وجه سولارا المتصالح في مرآة الردهة؛ لم يعد هناك مكان للتردد أو الخوف، بل غدا الكيان واحداً مستعداً للنزول إلى الجحيم المادي وتطهير الأرشيف للأبد من دنس الفساد.

خرجت من الشقة بخطى ثابته وموزونة، وتلاشت في ضباب ليل المدينة متجهة نحو المواجهة الختامية الكبرى في قلب القلعة العاجية.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية فجراً حين بلغت آسيا الأسوار الخلفية لكلية الآداب.

كانت الجامعة غارقة في سكون موحش، والضباب الحزيراني الرطب يلتف حول جذوع السرو العتيقة كأنه أنفاس الموتى. لم يكن هناك أي أثر للحرس المعتاد؛ فالمنطقة بأكملها كانت قد أُخليت بأمر سيادي من مروان.

تحركت آسيا بخطى رتيبة وموزونة، مسترشدة ببرودها السيكولوجي الصارم الذي شل كل ذرات الخوف الكامنة في وعي سولارا...

دعت عبر الباب الجانبي للتسوية السفلية، لتستقبلها رائحة نفاذة ومخيفة.. لم تكن رائحة الورق القديم المعتادة، بل رائحة الكيروسين والغاز المسكوب بغزارة فوق الأرضيات الإسمنتية.

في نهاية الممر المظلم، وتحديداً عند المنعطف المؤدي إلى الخزانة رقم (13)، كان هناك ضوء شاحب ينبعث من مصباح يدوي. تقدمت آسيا بثبات، لتجد رجلين يرتديان ملابس صيانة زرقاء يقومان بصب المواد الحارقة فوق الرفوف الخشبية للأرشيف، بينما كان الدكتور مروان نفسه يقف خلفهما، معطفه الفاخر مغطى برذاذ المادة السائلة، ويده المرتعشة تقبض على عود ثقاب خشبي طويل بملامح وحشية محاصرة بالجنون الأخير.

سكن أرجاء القبو بصوت آسيا الفصيح الجزل، المنخفض والقاطع كشفرة المقصلة:

"توقف مكانك يا سيد مروان...

استدار مروان بحدة، واتسعت عيناه الزائغتان برعب هائل حين لمح القناع الرخامي للفتاة الواقفة في عتمة الممر.

تراجع خطوة إلى الوراء، وصرخ بصوت مخنوق بالهستيريا:

"أنتِ؟! آخ منكِ أيتها الفتاة؟!...

كيف دخلتِ إلى هنا؟

كيف يمكن لفتاة مثلك أن تمتلك كل تلك الشجاعة...

لقد انتهى الأمر يا سولارا..!

هذا القبو اللعين سيحترق الليلة ومعه كل الأوراق والمخطوطات التي تظنين أنها تمنحكِ السطوة علينا!

إذا متنا أكاديمياً، فسنموت جميعاً وسط هذا الرماد!"

لم ترمش عين آسيا، ولم تتراجع خطوة واحدة، بل تقدمت بثبات رخامي يثير الرعب في النفوس.

وقفت على بُعد خطوات قليلة من السائل المسكوب، وظلت يداها مستقرتين داخل جيب معطفها، ونظرت إليه بعينيها الرماديتين الساكنتين وقالت ببرود قاتل:

"أعواد الثقاب التي بيدك لن تحرق سوى تاريخك الملوث يا سيادة النائب.

الهاتف الذي أملكه مرسل الآن ببث حي ومباشر لغرفة العمليات المركزية للمحقق صلاح، ورجال الدفاع المدني يطوقون المبنى بالكامل في هذه الثانية دون صفارات إنذار.

إذا أشعلت هذا العود، فلن تطمس أدلة عام ٢٠٢١، لأن النسخة الرقمية الكاملة قد وُزعت بالفعل على ثلاث جهات رقابية دولية، وحريقك هذا سيكون فقط صك إدانتك بتهمة حرق الممتلكات العامة .

في تلك اللحظة بالذات، دوت أصوات تحطم زجاج النوافذ العلوية للتسوية، واندفعت عناصر مكافحة الإرهاب والأمن الجنائي بقيادة المحقق صلاح عبر الممرات، مصحوبين بإضاءة كشافاتهم القوية التي مزقت عتمة القبو الرمادي.

سقط عود الثقاب من يد مروان المرتعشة قبل أن يشعله، وانهار بالكامل على ركبتيه فوق الأرض المبللة بالكيروسين، بينما أسرع رجال الأمن لتكبيل يديه وتثبيت رجلي الصيانة.

تقدم المحقق صلاح نحو آسيا، ونظر إلى ثباتها الأسطوري بنوع من الاحترام العميق، وقال بصوت جهوري:

لقد وصلنا في الوقت المناسب يا آنسة سولارا...

الأدلة المادية حية، ومروان سيقاد الآن إلى ذات الزنزانة التي ينتظره فيها عاصم.

التفتت آسيا وتحركت نحو الخزانة رقم (13)، وسحبت صندوق الأبنوس الصغير الذي يحتوي على المخطوطة الأصلية "ترانيم الظل الراحل" ووضعتها بعناية فائقة داخل حقيبتها الجلدية لحمايتها من الرماد والتلوث.

ومع خروجها من بوابة التسوية السفلية نحو باحة الجامعة، بدأت خيوط الفجر الأولى لليوم التالي بالبزوغ، لتغمر الساحة بنور نقي وعميق.

في تلك اللحظة، شعرت بانسحاب ناعم ودافئ للوعي الصارم لـ آسيا، ليعود وجه سولارا الإنساني ويتجلى بالكامل تحت أشعة الشمس المشرقة.

لم يكن هناك انقسام مجدداً؛ بل تكامل مطلق بين وعيين خاضا معركة الجحيم وانتصرا فيها.

فتحت الدفتر البنفسجي لتدون السطور الختامية لهذا الفصل العاصف:

"اليوم، انقشع ليل القلعة العاجية بالكامل وتحررت أسرار الأرشيف السفلي.

مروان سقط مكبلاً بالأصفاد، ورغد نالت عدالتها، والمخطوطة باتت حرة في يد الشرطة. لم نعد نخشى النيران يا آسيا؛ لأننا تعلمنا معاً كيف نصنع من الرماد حبراً صلباً يكتب بدايات حقبتنا الذهبية.. تمت النقلة الثامنة، والرقعة باتت ملكاً للحقيقة.

الفصل التاسع:

كش ملك للمنظومة

كانت قاعة المحكمة المركزية في المدينة تعبق برائحة الخشب المصقول والأوراق الرسمية العتيقة، تذكر بطقوس الأرشفة في الكلية، لكن الهواء هنا كان يحمل هيبة مختلفة؛ هيبة حاسمة لا تملك القلاع العاجية أمامها حق النقض أو الالتفاف القانوني.

خلف النوافذ الزجاجية الشاهقة للمحكمة، كانت شمس قد بدأت تميل نحو المغيب، لترسم ظلالاً طويلة ومائلة فوق منصة القضاء القضائية، وتنعكس على أقفاص الاتهام الحديدية التي قبع خلفها، ولأول مرة في تاريخ المدينة الأكاديمي، مجلس الأمناء الأعلى بكامل هيئته الفاخرة، يتقدمهم الدكتور كمال الصافي، والنائب المالي مروان، والمشرف المخلوع عاصم.

في الصفوف الأولى للمقاعد الخشبية المخصصة للجمهور، جلست سولارا مستقيمة الظهر، ترتدي ثوباً مخملياً داكناً يماثل غلاف دفترها البنفسجي، ويدها اليمنى تحتضن كف رغد التي كانت ترتدي معطفاً أبيض ناصعاً، يعبر عن خروجها الكامل من عتمة المصحة الرمادية إلى نور الحقيقة العلنية.

بجانبهما، جلس والد سولارا أبو أحمد بوقاره المعهود ولحيته المشوبة بالفضة، الذي بدأت حالته صحية تتحسن بشكل كبير....

يتابع الرقعة القضائية بعينين تفيضان بالفخر والسكينة؛ فقد انتهت سنوات الترقب، وحان وقت قطف ثمار الصمود الأدبي والسيكولوجي الذي خاضته ابنته في سراديب الكلية.

تنحنح القاضي الجليل، وهو رجل ستيني ذو ملامح وقورة حفرت فيها مئات القضايا الجنائية خطوطاً من الصرامة، ونظر عبر نظاراته الرفيعة نحو كومة الملفات الضخمة

المستقرة أمامه؛ ولم تكن تلك الملفات سوى الأصول التي استخرجتها آسيا من الخزانة رقم 13، مدعومة بالشيفرة الرقمية التي وثقت حسابات سويسرا لعام ٢٠٢١.....

"بعد الاطلاع على المستندات الجنائية الموثقة، ومطابقة التقارير الطبية السيادية المهورة بختم وزارة الصحة،"

بدأ القاضي نطق الحكم بصوت جهوري سكنت له كل حركة في القاعة،

"تثبت للمحكمة إدانة المتهمين كمال الصافي، ومروان الجلال، وعاصم عبد الحق، بتهم الاختلاس المنظم للمنح الدولية لعام ٢٠٢١، والتزوير الجنائي في محررات أكاديمية رسمية، والاحتجاز القسري الممنهج بحق الطالبة رغد طوال ثلاثة عقود بذريعة التقارير الطبية الواهية.

وبناءً عليه، تقرر المحكمة حكمها غير القابل للاستئناف:

السجن المشدد لمدة خمسة عشر عاماً بحق كل من كمال ومروان، وخمس سنوات بحق عاصم، مع مصادرة كافة أموالهم وحساباتهم الخارجية لصالح صندوق المنح الطلابية بالجامعة، وإعادة الاعتبارات الأدبية والأكاديمية الكاملة لضحايا هذه المنظومة.

دوت همسات الارتياح العارم في القاعة، وتنفست رغد الصعداء وهي تسند رأسها المجهد على كتف سولارا، بينما انهمرت دموع الفرح الصامتة من عينيها لتغسل عقوداً من القهر الكيميائي خلف الأسوار الجبلية.

التفتت سولارا نحو قفص الاتهام؛ لمح عاصم وعيناها الرماديتان، فحاول مدارياً وجهه الشاحب بيده المرتعشة، بينما انهار مروان على مقعده الخشبي وهو يتجرع الهزيمة الختامية فوق ذات الرقعة التي ظن يوماً أنه يتحكم ببيادقها من وراء الستار.

في تلك اللحظة بالذات، زحفت البرودة الرخامية الناعمة لآسيا داخل وعي سولار المشترك، لم تكن برودة معركة أو ذعر، بل كانت برودة التطهير والانتصار الشامل. التقطت سولار دفترها البنفسجي، وخطت تحت صدى مطرقة القاضي الكلمات الأولى لحكمها الخاص:

«اليوم، سقطت الرؤوس الكبيرة التي عبثت بمصائر الأبرياء، وتطهرت السجلات الأكاديمية بحبر العدالة التي لا ترحم الطغاة.. كش ملك للمنظومة، والنقلة الأخيرة كُتبت بدموع المظلومين وحرية رغد».

في صباح شهر التالي، كانت باحة كلية الآداب تسبح في نور شمس نقي وصافٍ، وكأن جدرانها الحجرية العتيقة قد نُفض عنها غبار العقود الداكنة. أُعيدت تسمية قاعة السمينار الكبرى باسم

قاعة الدكتور أحمد ورغد للبحث الأدبي، واحتشد مئات الطلاب والأساتذة من مختلف الجامعات لحضور حفل التوقيع الرسمي الأول لرواية للكاتبة والمحللة السيكولوجية آسيا سولارا الاسم الذي بات يمثل أيقونة التمرد الإبداعي والنزاهة الفكرية في البلاد.

جلست سولارا خلف طاولة التوقيع الفاخرة المغطاة بمخمل بنفسجي، وبجانبها باقات من الزهور البيضاء وفناجين القهوة المرة التي تفوح رائحتها الزكية لتعانق هدوء المكان.

لم تعد هناك مسافات تفصل بين وعيها الإنساني الدافئ وبين برود آسيا التحليلي؛ لقد ذابت الخطوط الفاصلة في بوتقة التصالح المطلق، ليتشكل منهما كيان واحد، صلب أمام التهديدات، وحانٍ أمام مآسي الإنسانية. كانت توقع على النسخ بخط أنيق، مائل وجزل، يجمع بين رقة يدها وحسم قلمها الأدبي.

تقدمت رغد نحو الطاولة، وجهها يفيض بنضارة استعادتها من غسق الماضي، وحملت بين يديها المخطوطة الأصلية "ترانيم الظل الراحل" بعد أن رُممت بالكامل في مختبرات الأرشيف الوطني تحت إشراف رئيس القسم الجديد الدكتور أمين.

وضعتها بجانب رواية سولارا، ونظرت في عينيها الرماديتين الساكنتين بنوع من القداسة الروائية:

"لقد أعدتِ للحبر كرامته يا سولارا.. والدكِ الروحي والكاتب المنتحر يبتسمان الآن من وراء الأفق؛ لأن النص الذي ماتوا من أجله غدا اليوم منارة تحمي الأجيال القادمة من دنس العابثين."

ابتسمت سولارا ابتسامة دافئة عكست استقرارها النفسي الكامل، وقالت بنبرة فصحى جزلة سكنت أرجاء الباحة: "الحقبة الذهبية لا تبدأ بالانتقام، بل بانتزاع الحقيقة وإعادة ترتيب القطع فوق رقعة الحياة لتستقيم المصائر."

مع انفضاض الحفل وميل الشمس نحو الغروب، وقفت سولارا عند السلالم الخارجية للكلية، وتأملت أشجار السرو الشامخة التي شهدت بدايات خوفها ونوبات هلعها القديمة.

سحبت الدفتر البنفسجي للمرة الأخيرة، وفتحت الصفحة الختامية التي خلت من أي هوامش مائلة أو نصوص منقسمة؛ فقد اتحد الحبر واتحدت الروح للوصول إلى الحل الكامل :

"إلى كل من مرّ بظلام الأرشيف وعتمة المصحات الرمادية: اللعبة انتهت بالكامل، والرقعة غدت حرة ومفتوحة لمن يملك شجاعة الكلمة. أنا وآسيا لم نعد ضفتين يفصلهما الخوف، بل صرنا نهراً واحداً يتألق تحت شمس الحرية. روايتنا أغلقت فصولها العشرة بنجاح ساحق، ولم نترك خيطاً واحداً معلقاً في مهب الريح.

الحقبة الذهبية بدأت الآن.. والملك الحقيقي على هذه الرقعة هو صدق الإنسان وحصانته الأدبية المطلقة."

أغلقت الدفتر البنفسجي برفق، وضمنته داخل حقيبتها الجلدية بجانب صندوق الأبنوس القديم، ومشيت بخطى ثابتة وموزونة نحو بوابات الجامعة المشرعة على مصراعيها، مستعدة لاستقبال غدٍ جديد لا يعرف الخوف ولا ينحني أمام العواصف

☆_____سولارا_____☆

"تعلمتُ أن الأرشيف الحقيقي ليس في الخزانات الفولاذية ولا في دهاليز الجامعات، بل هو ذاكرة الإنسان التي لا تموت، مهما حاول العابثون حرقها أو طمس معالمها.

لقد ظننتُ طويلاً أن آسيا هي القناع الذي سأختبئ خلفه لأواجه العالم، لكنني اكتشفت أنها لم تكن قناعاً، بل كانت الحقيقة العارية التي كنت أخشى مواجهتها في المرآة.

لقد كانت الشجاعة التي استللتها من صمتي، والقوة التي استخرجتها من دموعي.

إن العبرة ليست في إسقاط الطغاة، فلكل عصر طغاته، بل في أن تظل متمسكاً بروحك وانسانيتك الخاصة'...

أن تكتب قصتكِ بصدق، حتى لو كان الحبر دماً، وحتى لو كان الورق هشاً كأحلامنا في زمن الانكسار.

لا شيء يغلب الحقيقة إذا ما كُتبت بإيمان؛ فالكلمة التي تخرج من جرحٍ غائر، تصل إلى القلب الذي يحتاج إلى شفاء.

اليوم، أدركت أن حياتي لم تكن مجرد رواية لمحاكمة الظلم، بل كانت رحلة تطهير لي أنا أولاً.

لقد حررتُ رغد من قيود المصحة، وحررتُ والدي من لوعة الانتظار، وحررتُ نفسي من وهم الضعف.

الرقعة الآن فارغة، والبيادق التي تحركت غدراً قد ولت، وبقيت الساحة ملكاً لمن يجرؤ على الحلم، ولمن يملك البصيرة ليرى النور في نهاية الممر المظلم.

يا صديقتي الكامنة في أعماقي.. يا رفيقة الحبر والظل.. إلكِ يا آسيا القوية....

اليوم، نعلن ختام الفصل الأخير من حكايتنا..

لسنا بحاجة للاختباء بعد الآن، فالشمس التي تغيب اليوم ستشرق غداً على عالمٍ كتبناه بأيدينا، عالمٍ لا ينمو فيه العابثون، بل تزهر فيه الكلمة الحرة.

انتهت الحرب داخل النص، وبدأت الحياة خارج صفحاته.. حياةٌ تليق بنا، وبكل روحٍ رفضت أن تنطفئ في غياهب الظلم.

☆_____الراوية _____☆

وضعت سولارا القلم، وابتسمت ابتسامة خفيفة، هادئة، وعميقة. وضعت الدفتر البنفسجي في صندوق الذكريات الخاص بها، وأوصدت قفله بلمسة أخيرة، ثم اتجهت نحو النافذة لتشاهد نجوم حزيران وهي تتلألأ ففوقها ، وكأنها نقاطٌ مضيئة لحكايات لم تُكتب بعد.

لقد أغلقت الكتاب، لكن الحياة التي استعادتها كانت للتو قد بدأت.

فتحت الدفتر للمرة الأخيرة، وخطت ببطء كأنها تكتب وصية:

"يا من ستجدون هذا الدفتر بعد رحيلي.. لا تظنوا أننا انتصرنا. الانتصار وهمٌ يبيعه الأقوياء للضعفاء ليجعلوهم ينامون.

نحن لم ننتصر، نحن فقط لم ننكسر. لقد جعلنا الظلم مرآة، ورأينا فيها وجهنا الحقيقي. اليوم، أدرك أن أثمن ما نملكه ليس الكلمة، بل القدرة على عدم الخوف من تبعاتها...

لقد أحرقتُ الرقعة، لكن الرماد سيظل في أصابعي إلى الأبد. فليكن ذلك. فمن لا يعرف كيف يحترق، لا يستحق أن يضيء.

أطبقت الدفتر، وأطفأت المصباح. في العتمة، لم تكن هناك سولارا ولا آسيا؛ كانت هناك روحٌ وحيدة، عارية من الأوهام، تقف في مواجهة فجرٍ لا يعِدُ بالراحة، بل يعِدُ فقط بالمزيد من الصدق، والمزيد من المسؤولية.

لقد انتهت الرواية، لكن الحبر الذي سُكب في أقبية التسوية السفلية، ذلك الحبر الممتزج بدم الفاسدين ودموع المظلومين، كان لا يزال ينبض في جدران الجامعة.. كان صوتاً لا يمكن إسكاته، جرحاً لا يمكن تضميده، وحقيقةً ستظل تصرخ في وجه كل من تسول له نفسه أن يبيع كرامة العقل في سوق المصالح.

تم بحمد الله


شطرنج بلا رماد
في داخل كل منا خندقٌ لا يعرفه أحد... وفي داخل سولارا، كان هناك "آسيا".
عندما تنهار الحياة تحت وطأة الفقر وفساد السلطة، وتتحول الجامعة من منارة علم إلى مسرح للابتزاز، تجد سولارا نفسها محاصرة في رقعة شطرنج لا تملك فيها سوى الخوف، لكن، حين تغلق الأبواب، تظهر "آسيا"، الدرع الجليدي الذي صاغته سولارا من أوجاعها لتواجه به الوحوش.
رواية "شطرنج بلا رماد" ليست مجرد حكاية عن المواجهة، بل هي رحلةٌ داخل عقل ممزق يرفض الانكسار... هي قصة امرأة قررت أن تحرق خوفها، لتكتشف أن النصر الحقيقي ليس في هزيمة الخصم، بل في ألا تنحني حين يشتد الصقيع.
حين تصبح الحياة رقعة... مَن هو اللاعب؟ ومَن هو القطعة؟